فلاسفة المقاومة

تُقابل أفكار ابن رشد فى العالم الإسلامى كما قوبلت أفكار توما الأكوينى فى الغرب، وينتصر العلم فى الغرب ويفشل العلم العربى الذى أمد الغرب بأساسيات التطور العلمى فى أن يصل كما وصل العلم الغربى إلى العلم الحديث.

وإذا كان الفكر الإسلامى الذى اضطهد ابن رشد وعمل على سجنه، هو الفكر الذى مازال مسيطرًا حتى الآن، ومن المحتمل أن يكون هو السبب فيما نحن عليه من كساد فكرى وثقافى، فلماذا إذن لا نتسلح بأساليب المقاومة لأسباب فشل العلم العربى وفشل فلسفة التنوير فى المجتمع العربى الإسلامى؟

وأنا على يقين أن المعركة مع الفلاسفة فى الغرب لم تؤثر بتاتًا فى تقدم العلم الغربى وتطوره إلى العلم الحديث، فإذا كانت الكنيسة قد وقفت ضد الفلسفة التى خشيت منها على سلطانها، فإن فيلسوفًا كبيكون وقف هو الآخر ضد الفلسفة اليونانية القديمة، وعلى مدى الفترة من بيكون وحتى الآن جاء عدد كبير من الفلاسفة ينتقدون الفلسفة القديمة ويصفونها بأنها كلام فارغ، وفى المسيرة العدائية للفلسفة الميتافيزيقية جاء هيوم وأوجست كنت، وتعرضت فلسفة الحداثة لنقد شديد على أيدى فلاسفة ما بعد الحداثة.

وإذا كانت الفلسفة تسير فى مسار متذبذب يتردد الباحثون فيه بين القديم والحديث، فالعلم على العكس يأخذ مسارًا تراكميًا، تتكون فيه المعرفة على أساس المعرفة الموجودة فعلاً، نتطلع إلى الأمام دائمًا ولا يلتفت إلى الوراء أبدًا، حتى قيل إن العلم ليس له ذاكرة، مما

حدا بالمهتمين بالشئون العلمية إلى الحديث فى إحياء تاريخ العلوم.

ونحن إذ نتكلم عن فلسفة المقاومة، واستخدمنا كلمة فلسفة فى عنوان هذا الكتاب، نعطى الفلسفة لونًا مختلفًا عن الفلسفة القديمة، ونُحدد الرؤية الفلسفية فى كل ما يتصل بالتقدم العلمى والتقنى، أى فى كل ما يتصل ببناء القوة فى المجتمع، ونحن ندرك تمامًا أهمية دراسات الظروف الاجتماعية وأثرها فى تطور عملية التقدم وبناء القوة، والمسألة مترامية الأطراف ومتشابكة الأبعاد، كل طرف فيها يحتاج إلى دراسة وكل بعد فيها يحتاج إلى عناية حتى تتحدد بكل دقة كل الأطراف وكل الأبعاد.

إن الكنيسة كانت ترجع كل شىء إلى الدين، أما ابن رشد فدعوته الأساسية كانت فى الالتجاء إلى العقل، ولكنه لم يهمل الدين أبدًا، وهو بذلك لم يكن علمانيًا خالصًا، والكنيسة المتزمتة هى التى رفضت كل دعوة إلى العقل أى إلى العلم.

وقد وجد ابن رشد أن واجبه أن يفهم الإسلام على نحو عقلى، ومن هنا فقد اتبع منهجًا علميًا فى التأويل، لقد وجد ابن رشد أن المجتمع العربى الإسلامى تمزقه انقسامات الفرق والشيع والمذاهب الاعتقادية، وتحوله إلى جماعات بشرية هشة، وإن توحيد المسلمين لا يكون إلا بإصلاح عقليتهم وتوحيدها بالرجوع إلى أصول ثابتة يتفقون عليها ووجد أن الأصل الأول هو القرآن الكريم وهو يدعو إلى النظر العقلى والتفكير فى قضايا الإنسان والقضايا الميتافيزيقية الكبرى، والأصل الثانى هو فلسفة أرسطو الذى بدت لابن رشد أنها تمثل قمة العقلانية بمنطقها المتماسك وبنائها للعلم على أساس الكليات وقد رأى ابن رشد أن العامة ترى أن الأصل الثابت هو القرآن ولا حاجة للتأويلات الخاطئة التى جاء بها زعماء الفرق والمذاهب وهى كلها عند ابن رشد تأويلات خاطئة شتت أذهان الخاصة عند المسلمين - والأصل الأول الثابت وهو القرآن يجب

أن يفهم فهمًا عقليًا وتزال عنه كل التأويلات الخاطئة التى لحقته ويجب أن يعاد إلى نقائه الأول - والفلاسفة يقدرون وحدهم على فهم باطن القرآن بما يملكون من منهج عقلى صارم يتأولون به القرآن عند الضرورة تأويلاً صحيحًا.

إن مناقشة ابن رشد ومسألة التأويل موضوع شائك لحد كبير، دعونا نمر فوقه سريعًا لنصل إلى فيلسوف آخر تظهر فى تعاليمه روح المقاومة أكثر وضوحًا، ويأتى هذا الفيلسوف هذه المرة من الصين.

يقول متشيوس(*) إن الحاكم الذى يفقد تمامًا رضا شعبه لا يمكن أن يعتمد عليه ليقاتل من أجله وقت الحرب - ومن ناحية أخرى فإن الحاكم إذا عامل شعبه معاملة طيبة فسيؤيده فى ولاء تام حتى لا يقهر.

وهنا نجد أن الكنفوشيوسيين كان لهم تأثير جد فعال إذا ازداد الاهتمام بعامة الشعب باعتبارهم جندًا، وكانوا أحيانًا يرفضون ببساطة أن يحاربوا حتى يجدوا أن الطريق الوحيد للتغيير هو الحرب.

وقليل من الفلاسفة اهتموا اهتمام متشيوس بالاقتصاديات، والاقتصاد له علاقة وثيقة بالأخلاق، إذ أكد أن الشعب الجائع لا يمكن أن تتوقع منه أن يلتزم بالأخلاق، وكان يؤمن بأن الشعب يجب أن تتاح له الكفاية الاقتصادية، ولكنه دافع أيضًا عن أن الشعب يجب أن يتعلم حتى ترتفع أخلاقياته فوق مستوى الاستجابة البسيطة لمتطلبات الزمن.

لقد أيد متشيوس فى براعة إصرار الكنفوشيوسيين على الاهتمام بالشعب، لقد كان حازمًا بالنسبة لهذه النقطة وأكد أنه إذا ما فشل حاكم فى تحقيق الرفاهية لشعبه فمن الواجب أن يعزل وكأنه هنا يتفق مع روسو ومقولته عن العقد الاجتماعى.

وكان نظام كنفوشيوس فى الأخلاق بل فى الحقيقة فى معظم فلسفته يبدو أنه قائم على إدراك لما عليه طبيعة الكائن البشرى، فلم يقع

(*) حكيم أتباع كنفوشيوس.

قط فى خطأ من الخطأين اللذين كان يقع فيهما المرء أحيانًا فى هذا المجال؛ فمن ناحية لم يفكر فى الفرد ككائن مستقل تمام الاستقلال عن المجتمع، كما أنه لم يفكر فى المجتمع كضرب من الكيان الميتافيزيقى سام تمام السمو عن الفرد حتى يصعب القول بأن الفرد موجود ما لم يكن مندمجًا فيه تمام الاندماج.

لقد آمن كنفوشيوس بأن الأشخاص مخلوقات اجتماعية مهمة، لقد كان على المجتمع إلى حد بعيد جدًا أن يشكلهم إلى ما هم عليه، ومن ناحية أخرى مادام المجتمع لا يعدو أن يكون أكثر من تفاعل بين الأشخاص فإن المجتمع يشكله الأفراد الذين يكونونه بالصورة التى هو عليها.

إن الشخص الذى على خلق يجب ألا يكون عضوًا لا اعتبار له، بل عضوًا عاملاً فى المجتمع، وإذا ما بدا له أن ممارسة العرف فيها فساد أو ضرر، فإنه لا يتخلى عن العمل به فحسب، بل يحاول أن يؤثر على الآخرين ليبدلوا هذا العرف، وهنا تظهر روح المقاومة للتقليد والعرف إذا ما كان فى ذلك الجمود والثبات ومعاكسة سُنَّة التطور التى تقول بالحياة الأفضل دائمًا.

ومن المقرر أن العرف هو عصب المجتمع، فلو أن كل واحد منا أكل ونام متى وحيث يشاء واستخدم الكلمات التى ابتدعناها كأفراد لتعنى ما نريد نحن شخصيًا أن نعنيه لصار العالم مكانًا من الصعب العيش فيه، وقد استخدم كنفوشيوس كلمة (لى) لتدل على كل مركب فى الاستعمال العرفى والاجتماعى أمده بمضمون اجتماعى. وبهذا الارتباط فإن ما تقره الأخلاق واللياقة يعزز بعضه بعضًا، فنحن نعتبر أنه من الأدب، وليس من الضرورة أن يكون واجبًا أخلاقيًا، أن تكون مؤدبًا مع كل فرد نحن على صلة به، ونعتبره واجبًا أخلاقيًا، وليس بالضرورة أن يكون التزامًا أدبيًا، أن نعيد الممتلكات التى نجدها لأصحابها حتى ولم نكن على معرفة بهم.

وكان كنفوشيوس يعتبر أن الصقل العقلى قليل القيمة ما لم يكن مصحوبًا بالتوازن العاطفى، وللوصول إلى مثل هذا التوازن العاطفى

اعتمد على التربية فى الـ (لى)، وكان يقول أن من الواجب أن ننظم تعليم الصبى عن طريق الـ (لى)، فإذا ما أعد شخص على هذه الصورة لمواجهة العالم، فإن ما ناله من قوة يمكنه من أن يمسك بحق بمبادئه خلال أية محنة وفى مواجهة كل إغراء.

وقبل زمن كنفوشيوس كانت الكلمة تستخدم عادة إما فى هذا المعنى أو بمعنى طريق السلوك الذى قد يكون صالحًا أو طالحًا فى غير تمييز وبعد زمن كنفوشيوس استخدم كمفهوم تصوفى للدلالة على التركيب الأول للكون أو على شمول الأشياء كافة.

وهناك مفهوم آخر له أهمية أساسية فى فلسفته وفى تربيته وكان ذلك مفهوم الطاو (Tao) ويترجم عادة على أنه الطريق.

هذه الفكرة الأخيرة راجعة بصورة عامة جدًا إلى استخدام كنفوشيوس للعبارة، وهناك فقرات قليلة فى المقتطفات الأدبية يبدو أنها تجعلها مقبولة، ولكن يمكن لهذه الفقرات أن يكون لها تفسير مختلف، ولم يكن الطاو فى نظره شيئًا صوفيًا كما استخدمه الطاويون بعد زمن كنفوشيوس، الطريق دون كل الطرق الأخرى التى يجب أن يسلكها الأشخاص، وهدفه هو السعادة فى هذه الحياة هنا والآن لكافة الجنس البشرى، وتمامًا كما تحمل الـ (لى) معنيين: الأدب والأخلاق فكذلك الحال بالنسبة للطريق الذى يتضمن من ناحية: القانون الأخلاقى للفرد ومن ناحية أخرى نمط الحكومة التى يجب أن تصل إلى القدر الكامل المتيسر لرفاهية كل كائن حى ولإدراكه الذاتى.

لقد طالب كنفوشيوس أتباعه بأن يكونوا فى منتهى الحماسة، لقد كان ينتظر منهم بطبيعة الحال أن يكونوا على استعداد فى كل الأوقات لأن يضحوا بأرواحهم فى سبيل مبادئهم. وقد فعلوا ذلك، وعلى مدى القرون أخرج كنفوشيوس مجموعة ضخمة من الشهداء قدموا حياتهم دفاعًا عن الطريق، مات بعضهم كثوار هبوا للحرب ضد الطغيان، وكان هذا مصير

وريث كنفوشيوس نفسه فى الجيل الثامن، وقد مات غيرهم على يد منفذى حكم الإعدام لأنهم تجاسروا على العمل بوصية كنفوشيوس بنقد أى حاكم مخطئ دون أن يخشوا أحدًا من أجل الصالح العام.

وفى مقاومة الفساد بنى كنفوشيوس فلسفة السياسة على أساس أن الحكومة يجب أن يكون هدفها رفاهية الناس أجمعين وسعادتهم، وكان يعتقد أن هذا لا يمكن أن يتحقق إلا إذا تولى شئون الحكم أعظم الرجال كفاية فى البلاد، ومثل هذه الكفاية لا علاقة بها بالمولد أو الثروة أو المكانة وإنما هى خاصة بالخلق والمعرفة، وهما ثمرة التربية الحقة، لذا يجب أن تكون التربية منتشرة انتشارًا واسعًا حتى يمكن إعداد أكثر الرجال موهبة فى البلاد بأسرها.

وعندما مات كونفوشيوس عام ٤٧٩ ق.م من المحتمل أنه كان هناك قلة لم تظن أن الرجل العجوز الذى يثير العطف قد مات لأنه قد أخفق، ومن المؤكد أن هو نفسه قد اعتقد ذلك، ومع ذلك فهناك قلة من الناس قد أثرت فى التاريخ تأثيرًا أكثر عمقًا من تأثير كنفوشيوس، ولكن الاستجابة لفكره مازالت باقية وفى الصين اتخذت أجيال أثر أجيال من تفكيره تفكيرًا شخصيًا لها، واليوم نلاحظ أن بعض الشيوعيين الصينيين يدعون بأن تفكيره هو تفكيرهم الشخصى. وفى الغرب كان تأثيره أكبر مما ندركه أحيانًا. كانت هذه هى الحال بصورة خاصة خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر، ومن ثَمَّ يقول «إيشفاين»، ولقد صار كنفوشيوس القديس الحالى لحركة التثقيف فى القرن الثامن عشر.

وإذا تطلعنا إلى سر هذه الاستجابة لبدا أنه من المحتمل أن تكون قائمة على إصراره على سيادة القيم الإنسانية – فلقد أكد أن الحكمة هى معرفة الناس والفضيلة هى حب الناس.

ولعل ما هو أهم من ذلك ما يمكن دعوته «ديمقراطية التقليد» لقد كان عدد كبير من الناس على استعداد لأن ينادوا بأن من الواجب أن

يحكم الناس أنفسهم، ولكن كان هناك نسبة قليلة من الفلاسفة على استعداد أن يؤمنوا بأن الناس بوجه عام يفكرون لأنفسهم على النمط الذى يشير إليه الفيلسوف بلطف لأجل مصلحتهم، ولم يكن كنفوشيوس راغبًا فى وجوب تفكير الناس فى أنفسهم فحسب، بل أصر على ذلك، لقد كان على استعداد لأن يساعدهم كيف يفكرون ولكن يجب أن يكتشفوا الإجابات بأنفسهم، لقد اعترف صراحة أنه هو نفسه لم يعرف الحقيقة ولكنه عرف طريق البحث عنها فحسب.

لقد آمن بأن الإنسانية يمكن أن تجد السعادة فقط فى صورة مجتمع تعاونى لأناس أحرار، ولكن الناس لا يمكن أن يكونوا أحرارًا بينما يتبعون إلى الأبد نجمًا أشار إليه رجل آخر. وقد آمن بأن من يقدم لهم نحت أسلوب الحقيقة الثابتة، مبدأ يمثل فقط التبصر الناقص للفرد يؤدى إلى خيانة ثقتهم، وهو لم يفعل ذلك قط، لقد قال: «إذا لم يسائل المرء نفسه باستمرار ما الشىء الصواب الذى يؤديه؟ فإننى لا أعرف فى الحقيقة ما الذى سيلم به».

ومهما تكن فلسفة كنفوشيوس وطابعها الثورى ومعارضتها للاستبداد ودعوتها إلى الأخلاق، فإنه لم يقدر لها أن تحول من شعب الصين إلى قوة خلاقة ومبدعة أو تنهى حكم الطغاة المستبدين، ويظل الحكام الفاسدون يحكمون الصين، ويزداد حال الصينيين سوءًا، ويغزوها الأجانب، حتى قيض لها ظهور الشيوعيين، ومن الحكمة أن نقول إن هؤلاء قد استهلموا الفكر الثورى فى فلسفة كنفوشيوس، ونظموا صفوفهم، وكان هذا التنظيم الأداة الفعالة لنجاح الشيوعيين.

ولماذا نجح الشيوعيين؟ هل كان للثقافة الغربية فى القرن الماضى أثرها فى تغيير الصين هذا التغير العميق، ربما كان فى اعتقاد الصينيين منذ أمد طويل أنهم أكثر الناس ثقافة، وأكثرهم علمًا وأنهم فى الحقيقة وحدهم القوم الذين لهم أهمية على وجه الأرض.

وفى القرنين السابع عشر والثامن عشر أقرهم كثير من الأوربيين على هذا، ولكن منذ أن بدا ضعف الصين واضحًا، صار معظم الأوربيين يتطلعون إلى الصين على أنها شعب متأخر وشعب بدائى.

وفى حالة البؤس والازدراء التى عاشها الصينيون فى القرن الماضى تساءل الصينيون ماذا يمكن عمله؟ واستنزفت هذه المشكلة معظم نشاط الصينيين خلال القرن الماضى، وليس عجيبًا أن يسهموا إسهامًا بسيطًا نسبيًا فيما هو جديد فى مجال النظرية الفلسفية الأساسية، فالرجل الذى يحترق منزله لا يجلس وسط لهب النيران يؤلف رسالة فى المنطق.

وقد حاول الصينيون أن يقابلوا تحدى الغرب بأساليب ثلاثة: أصر البعض على أن الأنماط التقليدية الصينية للحياة والفكر أسمى من كل ما سواها، وأن الصينيين يجدون أنفسهم فى مشكلة لا لأنهم كانوا محافظين تمامًا، بل لأنهم لم يحافظوا على المثل العليا التقليدية، إذ لو أنهم حافظوا عليها لكانت الصين بالغة القوة ولتخلصت من مشاكلها، واتبع البعض طريقًا أكثر اعتدالاً، فبينما كانوا يؤمنون بأن الثقافة الصينية يمكن اعتبارها أساسًا لتطوير الصين، كانوا يودون تعديلها كى تتمشى مع ظروف العالم الحديث، وأن يأخذوا بتلك الفنون الغربية التى ظهرت فائدتها، ومجموعة ثالثة أصرت على أن النمط التقليدى الكامل فى الصين للتنظيم السياسى والاجتماعى والاقتصادى، لا يتمشى مع عالم اليوم وكل أسلوب الحياة والفكر يجب أن يتبدل.

ولكن معظم من درجوا من الصينيين على معرفة الغرب معرفة جيدة وأعجبوا لفترة بثقافة الغرب ما لبث أن زال وهمهم وساء ظنهم ومن الأمثلة الطريفة لذلك (ين فو ١٨٥٤ - ١٩٢١) فبعد أن درس فى جامعة أدنبره صار رائدًا فى ترجمة المؤلفات الفلسفية الغربية إلى الصينية، فلقد ترجم كتاب لكل من ت. هـ. هكسلى، وجون ستيورات ميل، وهربرت سبنسر، وآدم سميث، وغيرهم من الذين لعبوا دورًا مهمًا فى إدخال

الفكر الغربى إلى الصين، ومع ذلك فبعد الحرب العالمية الأولى بدأ يفكر رغم هذا أن الصين أحسن منوالاً وراح يقول: لقد فسدت الثقافة الغربية تمامًا بعد هذه الحرب الأهلية، قبل ذلك عندما كنت أسمع أن علماء مدرستنا القديمة يقولون إنه سيأتى يوم يمارس فيه كل البشر تعاليم كنفوشيوس، كنت أظن أن حديثهم هراء، ولكننى أجد الآن بعضًا من ألمع الرجال فى أوربا وأمريكا يبدو أنهم يقتربون شيئًا فشيئًا من هذا الرأى.

ويبدو لى أنه فى خلال ثلاثة قرون من التقدم حقق الغرب أربعة مبادئ: أن يكونوا أنانيين وأن يقتلوا غيرهم، وأن يكون نصيبهم من الاستقامة قليلاً، وأن يشعروا بقليل من الخزى. كم هى مختلفة متباينة عن مبادئ كنفوشيوس ومنشيوس كالفرق بين السماء والأرض - وهى مرسومة لكى يفيد منها كل فرد فى كل مكان.

وبرغم أن المصلحين بوجه عام صمموا على المحافظة على القديم، إلا أنهم لم يرغبوا جميعًا على الإطلاق فى أن يحطموا تراث الصين الثقافى، فمثلاً «صن بات - سن» الذى فعل أكثر من غيره للقضاء على الإمبراطورية قد أبقى بصورة واضحة على الملامح الصينية فى الدستور الذى اقترحه للجمهورية، ولقد أكد «ما نريده من أوروبا هو العلم لا الفلسفة السياسية، وأما بالنسبة للمبادئ الحقيقية للفلسفة السياسية فالأوروبيون فى حاجة إلى تعلمها من الصين».

وتراث الصين الثقافى الذى يضم على الأقل ثلاثة آلاف سنة من التطور التدريجى هو واحد من أقدم تراث فى العالم، ويبدو أن ذلك التراث إن لم يكن قد انتهى، فهو قد بلغ على الأقل نقطة التحول الثورى مع نفوذ الشيوعيين الصينيين فى سنة ١٩٤٩ - هذا على الرغم من أن الحزب الشيوعى الصينى لم ينظم نفسه إلا فى عام ١٩٢١ - ويعنى ذلك نجاحه السريع، وذلك نتيجة للانتفاضة الثورية التى قامت بها جماهير الصين ردًا على الفاقة وعلى الاستغلال الاقتصادى.

obeikandl.com

لنقف أمام التهديد الأمريكى

فى كتابه بعنوان «اليابان يمكن أن تقول لا» يقول سنتارو إيسهارو.

فى حوالى عام ١٩٨٧ انتهجت الولايات المتحدة أسلوبًا جديدًا فى مواجهة اليابان، فنظرًا للشعبية التى اكتسبها ميخائيل جورباتشوف فى الغرب ولانكماش التهديد المنبعث من إمبراطورية الشر أصبحت حملات التعريض باليابان أمرًا متواترًا وأكثر حدة، ومن ثَمَّ أصبحت طوكيو مسرحية الموسم يصب عليها سياسيو أمريكا جام غضبهم، وبدلاً من استعراض الحقائق ووزنها تقدم الكونجرس صفوف المهاجمين وكأن به مس من الجن وقام عدة شيوخ بتحطيم أجهزة تسجيل توشيبا بمطارقهم على درجات الكابيتول، ولكم كان عملاً مخزيًا.

ويجب ألا يخشى مسئولو السياسة الخارجية فى اليابان من هذا التهديد الساذج، فاليابان تسيطر على التقنية الراقية التى تعتمد عليها القوة العسكرية لكلا البلدين، ولسوء الحظ لم تستخدم اليابان ورقة التقنية بالمهارة المفترضة، على الرغم من امتلاكها القوة للجهر بالقول «لا» لأمريكا، فإن اليابان لم تجرب بعد هذا الخيار، فنحن أشبه بلاعب البوكر الذى يمتلك الورق الرابح ولكنه اعتاد على كشف أوراقه.

انتفض من التقيت بهم من المشرعين الأمريكيين استياء حين فاجأتهم بالقول إنهم يفتقدون المصداقية، لأن الكونجرس يمضى فى سلوك شاذ يعكس الانغماس والاستغراق فى الذات متجاهلاً بذلك أهداف الإدارة الأمريكية، ومضيت أضيف: ولعل قرار العقوبات الاقتصادية لأفضل مثال على ذلك، فلا يوجد مجلس تشريعى فى العالم يستحق هذا الاسم يصدر تشريعًا كهذا فما كان من هؤلاء المشرِّعين

سوى الانفجار فى الضحك لمداراة ارتباكهم.

وعلى الرغم من ذلك على أن أقر بعد أن أدى النزاع، حول أشباه الموصلات بين الولايات المتحدة واليابان إلى تدهور الوضع إلى حد فرض العقوبات، أن السبب يرجع فى ذلك إلى عدم رفض اليابان لمطالب الولايات المتحدة فى المرحلة الحرجة، فذلك الرجل الوغد الذى يطاطئ موافقًا عند كل منعطف كان ياسيرو ناكسونى رئيس وزراء اليابان السابق.

بعد فوز الحزب الليبرالى الديمقراطى الساحق فى انتخابات ١٩٨٦. اندفع ناكاسونى فجأة وبتهور ليعد الولايات المتحدة بإمدادها بالتقنية العسكرية المتقدمة، وبدلا من استخدام هذه السلعة الثمينة فى المساومة بصدد المطالبة بالتعامل بالمثل - رفض العقوبات على سبيل المثال - ضيع تلك الورقة الرابحة دون مقابل - ربما قصد ناكاسونى من وراء ذلك الالتزام إسداء معروف لأمريكا لعلها تعترف يومًا بالجميل وترد العطاء، فقد كان ناكاسونى السياسى الياباني الوحيد الذى يعى تمامًا ما يعنيه هذا الالتزام ومدى حاجة البنتاجون الماسة لمعدات تقنية معينة قابلة للاستخدام العسكرى.

بل لم تصرخ صرخة احتجاج يابانية واحدة سواء من الحزب الحاكم أو من أحزاب المعارضة، بل لم تلتقط قيادة الحزب الليبرالى الديمقراطى الحقيقى وراء تصرف رئيس الوزراء، ومما يدعو للأسف أن الساسة اليابانيين لم يدركوا بعد أهمية التقنية اليابانية المذهلة، على حين يعتصر الخوف أحشاء الأمريكيين، فالصدارة فى التقنية المتفوقة هى مصدر القوة العظيمة لليابان ولسبب أو لآخر، لم تستخدم بعد هذا المصدر بفاعلية واقتدار فى الساحة الدولية، لست أدرى علة لذلك، ربما يفوق الأمر طاقتى على الفهم، فعلى الرغم من تلك الميزة المذهلة يحج رؤساء وزراء اليابان إلى واشنطن لتقبل كل رغبات البيت الأبيض، إلى

من أجأر بالشكوى من السياسة الخارجية لليابان؟

لقد أدرك ناكاسونى مدى تفوق التقنية اليابانية على نظيرتها الأمريكية، كما أدرك قلق البنتاجون المفرط من اعتماده على الرقائق اليابانية، ومع ذلك ولأسبابه الخاصة، لم ينبس بكلمة ليمنع ابتزاز الولايات المتحدة، ترى هل كان لدى حكومة الولايات المتحدة شىء ما ضده يتعلق بقضية رشوة اللوكهيد عام ١٩٧٦، أم ترى لديها معلومات محرجة أو اتهامات ما حول فضيحة سياسية أخرى، وأيًا كانت الأسباب فلم يضغط ناكاسونى مستفيدًا من هذه المزية. لكم كنت أتمنى لو أنه كشف أوراقه جميعًا، وكان عنيفًا على الأقل بما يكفى للقول «لدى حكومتى وجهة نظر مختلفة بهذا الصدد».

لابد أن يعرف الأمريكيون أن الحقبة الحديثة قد انتهت وأن معتقداتهم الأثيرة فى المادية والعلوم والتقدم لم تثمر إلا المرارة، فالهزيمة فى فيتنام على الرغم من النابالم المنهمر على الريف الفيتنامى لعشر سنوات، تبرهن على عبث القدرة العسكرية، لقد سخرت أمريكا العلم وأنفقت أموالاً طائلة للوصول إلى القمر لتجد فى النهاية كومة من الصخور العقيمة، كل هذا المال والجهد، ما العائد الذى خرجت به الأمة؟ فما الذى تمثله أمريكا الآن من الناحية الاقتصادية، لا شىء يوجد سوى نشاط وفاعلية فى الحضيض، على حين أخذت اليابان فى تجاوز الولايات المتحدة بخطوات كبيرة.

ولا يرجع التباين التام بين اليابانيين والأمريكيين فى مجال الصناعة والعمل، لمجرد الكفاءة فقط، ونعنى بالكفاءة الإنتاج والتوزيع والخدمات، ولكن التباين يتصل بالأساليب وبالقيم الشرقية، فاليابان بلد آسيوى وجزء من العالم الرأسمالى، ولقد تقدمت اليابان فى الملعب وأصبح متأخرًا الآن أن يطالب الأمريكيون اليابان بالتغير لمجرد أنها تعمل وفقًا لمبادئ مختلفة، مكررة بذلك ما يكرره النقاد الرجعيون، نحن ننتمى إلى

الشرق ونحن فى خضم اللعبة، واتهامنا بأننا أمة غير منصفة فى التجارة، لمجرد أننا لا نتبع الأسلوب الأمريكى لهو تهجم وضيع وفج.

لا تختلف هذه القراءة اليابانية للموقف الأمريكى من بلاد الشرق بوجه عام، عن قراءة المفكر العربى، فالصورة تكاد تكون واحدة، وناكاسونى العربى مازال يحتل الصدارة فى الخضوع لأمريكا تحت وهم الصداقة. بل أن التبجح ذهب باليعض ليقول إن علاقتنا مع أمريكا علاقة استراتيجية، ونحن أصدقاء لأمريكا، أية صداقة هذه؟ إنها تبعية وعمالة، فعلينا أن نطيع الأوامر، وننزلق لتقديم كل التنازلات مقابل لا شىء قد تكون المعونة الأمريكية، ولكن ما تساوى المعونة الأمريكية فى مقابل تحطيم الأمة، فأمريكا تغزو العراق، والزعماء العرب غير قادرين على وصف الغزو الأمريكى بأنه احتلال، ولا يتحرك العالم العربى لمساندة العراق وتقوية مقاومتها للاحتلال.

ثورة كوبا وظهور جيفارا

ويقول جيفارا عن فترة تكوينه الأولى، حينما بدأت أتعلم الطب كنت أحلم بأن أكون باحثًا مشهورًا، ولكن ذلك يعد إنجازًا شخصيًا، وبعد تخرجه وفى تجواله فى أمريكا اللاتينية تأثر بالبؤس والجوع والمرض وبدأ وعيه السياسى يتحرك، وفى جواتيمالا تعلم من تجربتها الاشتراكية أن يكون طبيبًا ثوريًا أو ثوريًا على وجه العموم، ويجب أن يكون هناك ثورة أولاً، أن العمل المنعزل لرجل واحد بغض النظر عن مثاليته النقية لا يساوى شيئًا، ولكى تبقى مفيدًا فمن الضرورى أن تصنع الثورة كما فعلنا فى كوبا حيث تحرك كل الناس وتعلموا كيف يستخدمون الأسلحة ويحاربون معًا، ولقد تعلم الكوبيون الآن مدى قيمة الأسلحة ووحدة الشعب.

فى قلب الثورة تلغى الفردية، الفردية كما هى عمل منعزل للفرد فى حركة اشتراكية يجب أن تختفى من كوبا. الانفراد فى المستقبل يجب أن يكون الاستخدام السليم للفرد الكامل للخدمة المطلقة للمجتمع. الثورة ليست الوسيلة المعيارية للرغبة الجماعية. فهى المحرر لقدرات الشخص الفردية، لأنها توجه هذه القدرة لخدمة الثورة.

لقد اصطنع جيفارا مفهومًا أصبح مرادفًا له وهو «الرجل الجديد» وفى كلماته:

«كيف توفق بين جهد الفرد وحاجات المجتمع؟ علينا أن نتذكر من جديد إلى أى مدى حياتنا متشابهة، ما يفعل كل منا ويفكر فيه كطبيب أو فى أى وظيفة طبية أخرى، قبل الثورة علينا أن نعقل ذلك بحماس ناقد عميق - وعندها سوف نصل إلى نتيجة أن كل شىء فكرنا فيه أو

شعرنا به فى الزمن الماضى قد تلاشى. ونوع جديد من الإنسان يجب أن يخلق، وإذا أصبح كل فرد منا مهندس هذا الإنسان الجديد - سوف يكون خلق هذا الإنسان الجديد الذى يمثل كوبا أكثر سهولة.

وحينما أشار إليه بعض الاقتصاديين الماركسيين على أنه يجب أن يعطى الفلاحين المشاركين فى المزارع الجماعية أجرًا إضافيًا عن الجهد الزائد الذى يقومون به، رد جيفارا بأن العمال ليسوا فى حاجة للشعور بالملكية ولكنهم فى حاجة للشعور بالمسئولية.

كان جيفارا يريد أن يقفز على المراحل فى التحول الاشتراكى فى كوبا بالذهاب مباشرة من الرأسمالية إلى الشيوعية فى تشابه كبير لمحاولة ماو فى الصين عام ١٩٥٦ - مع حملته الراديكالية (قفزة كبيرة إلى الأمام) - وباختصار كان «شى» سابقًا عصره بكثير فى الأفكار - بالنسبة لواحد قد دخل الشيوعية لتوه.

وعلى بعد من شفافية جيفارا ومثاليته فإن ما كان يبنى فى كوبا بقيادة كاسترو سواء أكانت اشتراكية أو غيرها كان عبارة عن عبادة للفرد على طراز قديم، وكان على الكثيرين من زملاء كاسترو ورفاقه فى الكفاح أن يعبروا عن معارضتهم لهذه التغييرات الراديكالية، ويتركوا صفوف الثورة ويهرب معظمهم إلى الخارج، لقد فقد بعض المحللين الثقة فى كاسترو الذى كانوا يشبهونه بالقديس أو المسيح قبل عام من لحظة التغيير الراديكالى، واتهم البعض كاسترو بأنه يأخذ كوبا إلى حالة (من العذاب).

وكان على كاسترو أن يواجه أعداء الثورة وخصوم اتجاهاته الراديكالية الجديدة، وظهرت الكنسية أيضًا معارضة له مما جعله يشكو من تحفزات الكنيسة المنظمة.

ويقول كاسترو: «يبدو واضحًا أن كل ثورة لها أعداؤها، وإنما تشتعل الثورة ضد طغم الحكومة التقليدية التى لا ترجو الشعوب منها نفعًا،

ولا عدالة، ولا تطويرًا، ولا تقدمًا، ولكل ثورة ضحاياها، كما لكل حرب ضحاياها والثورة إما أن تكون اجتماعية أو سياسية، وهل نرى فى توحيد إيطاليا، وتوحيد شمال وجنوب الولايات المتحدة، ثورة أم إنها حروب قام بها قادة أرادوا نظامًا جديدًا فى منطقة ما، هل يمكن أن نوجه اللوم لمن أراد على سبيل المثال القضاء على وجود القبائل النورماندية فى أوروبا وتكوين كيانات سياسية أكبر أو جيرارلدى أو جورج واشنطون فى حربهما لتوحيد إيطاليا والولايات المتحدة».

وكانت مسألة الحكم الجديد فى كوبا قضية رئيسية فى حملة الانتخابات الأمريكية، واتهم كيندى ايزنهاور بالتهاون تجاه كوبا وأنه سيعمل لإعادة الديمقراطية فى كوبا، وعمل البيت الأبيض على إصدار قوانين لفرض العقوبات على البلاد التى تشترى السكر الكوبى بقروض أجنبية، وقطع المعونات عن البلاد التى تقدم أى عون لكوبا وأخذت الولايات المتحدة وضع كوبا إلى منظمة الدول الأمريكية وضغطت لإصدار إعلان بالإجماع يدين أى تدخل فى نصف الكرة الجنوبى من القوى خارج القارة فى إشارة إلى الشراكة المتنامية بين كوبا والاتحاد السوفيتى.

ورد كاسترو على إعلان «سان جوزى» بتحديد موقف كوبا فى نصف الكرة كمثال ثورى، وأعلن عن إصرار كوبا على حماية حقوق المضطهدين بالحرب ضد الاستغلال والرأسمالية والاستعمار، وهدد بأنه إذا أعلنت الولايات المتحدة الحرب على كوبا، فإنه لن يتردد فى قبول صواريخ الاتحاد السوفيتى الموجهة. وأخيرًا أعلن أن بلاده ستعترف بالصين الشعبية.

كان جيفارا يقول «أنا لا أعرف إذا كانت الثورة ستنجح أم لا، ولكن لا تبحث عنى فى القارات فسوف أذهب إلى الخارج حاملاً بندقيتى إلى الأدغال - سأستمر فى الحرب إلى النهاية.

أنا كرست حياتى لها، لبناء الاشتراكية، إننى كنت أقرأ أولاً لأبنى، بعد ذلك الجامعة يجب أن تأخذ باللون الأسود، لون العامل والفلاح، وإذا لم تفعل فسوف يقتحم الشعب أبوابها، ويصبغون الجامعة باللون الذى يريدونه».

وحينما أصبح جيفارا مسئولاً عن قطاع الصناعة فى كوبا بدأ يتعلم الرياضيات وحساب المثلثات أولاً، وسريعًا ذهب إلى الهندسة التحليلية.

وحينما أراد كاسترو أن يعين رئيسًا للبنك بعد أن عزل رئيسه السابق من منصبه لاحتجاجه على القبض على أحد المناوئين للثورة، قال فى اجتماع عام ما نحتاجه هو اقتصادى جيد، فرفع جيفارا يده فقال كاسترو: أننى أعلم أنك لست اقتصاديًا، فأجاب «شى»: «كنت أتوقع أن تقول إنك تحتاج شيوعيًا جيدًا».

دعا جيفارا إلى تكوين حلف دولى من الدول المستقلة حديثًا فى آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية يقف فى مواجهة الاستعمار، ومنذ اللحظات الأولى التى استقرت فيها ثورة كوبا خرج جيفارا نفسه على المسرح العالمى.

وفى فبراير ١٩٥٧ طار وزير خارجية كوبا إلى آسيا وشمال إفريقيا ليمتد بدعوة كوبا لحضور مؤتمر دولى للبلاد النامية يعقد فى هافانا.

ومنذ ١٩٥٧ أخذت حوالى عشر دول استقلالها من الاستعمار الفرنسى والبريطانى والبلجيكى - وبلاد أخرى مثل الجزائر كانت تخوض الحرب من أجل الاستقلال، لقد انتهى عهد الاستعمار، والمستقبل أصبح بيد رجال واجهوا الإمبراطوريات الميتة مثل ناصر وسوكارنو - ولماذا لا يلتحق كاسترو بالركب.

وكان كاسترو قد أعلن عام ١٩٦٠ عام الإصلاح الزراعى ولكن من الأفضل أن يسمى عام المواجهة، لقد تدهورت العلاقات بين كوبا والولايات المتحدة، وتسارعت خطوات التحول الاشتراكى، وبدأت الحرب

مبكرًا فى يناير مع مذكرة احتجاج أرسلها وزير الدولة هرتر حول الاستيلاء غير القانونى على الأملاك الأمريكية دون دفع التعويضات عنها، وردت كوبا بالاستيلاء على كل المراعى الكبيرة، وكل أراضى زراعة قصب السكر فى كوبا بما فيها ما يمتلكه الأمريكان - وفى أعقاب ذلك هاجمت طائرات مجهولة الهوية من أراضى أمريكا وقذفت بالقنابل حقول القصب فى كوبا، وكانت عمليات التخريب تنظمها وكالة المخابرات الأمريكية التى كانت تخطط حينئذ لتدريب قوات فى المنفى من أجل بناء حملة عصابات ضد كاسترو.

ولقد أشعل التفاعل داخل أمريكا السياسة الداخلية فلقد كان الرئيس أيزنهاور فى سنته الأخيرة لمدته الثانية، وحملة انتخابات من يأتى بعده على الأبواب، ومع بداية الحملة استغل نائب الرئيس نيكسون كوبا كمادة فى دعايته الانتخابية متحديًا كاسترو بأنه سوف يعاقب على أفعاله، وكان ضمن التهديد قطع استيراد حصة أمريكا من السكر الكوبى وأجاب كاسترو على التهديد بتحديه المعتاد، وفى ١٩ يناير ردت «إنرا» بمصادرة كل الممتلكات الكبيرة التى يملكها الكوبيون والأجانب، ووضعت كل الممتلكات الزراعية الكبيرة فى قبضة الثورة.

ومن أجل حماية الثورة الكوبية أراد كاسترو أن يشترى الأسلحة، ورفضت معظم الدول تحت ضغط أمريكا أن تبيع لكوبا السلاح، فيما عدا بلچيكا وإيطاليا، وجاءت سفينة محملة بالأسلحة من بلچيكا لكنها تفجرت فى ميناء كوبا، وكانت الضحايا مائة قتيل ومئات الجرحى. بعدها اضطر كاسترو لأول مرة أن يطلب السلاح من الاتحاد السوفيتى الذى رحب بإرسال السلاح إلى كوبا.

وانعقد فى هافانا مؤتمر للمثقفين اليساريين من أوربا وأمريكا اللاتينية وكان من بين المدعوين جان بول سارتر وسيمون دى بوفوار بدعوة من كارلوس وانكى، وجرت محادثة طويلة بين سارتر وجيفارا،

وتأثر سارتر كثيرًا بجيفارا فنعاه بعد وفاته إلى الرأى العام الفرنسى بأعلى قدر من التقدير يمكن أن يقدم، جيفارا لم يكن «فقط مثقفًا بل الإنسان الأكثر كمالاً فى عصرنا».

وفى زيارتها لشوارع هافانا كتبت دى بوفوار فى مذكراتها «فنانون مشهورون يرقصون أو يغنون لجمع المال، فتيات حسناوات بملابسهن الاحتفالية تقودهن فرق موسيقية يسرن فى الشوارع يجمعن التبرعات، إنه شهر عسل الثورة».

أما سارتر فيقول «لا آلية، لا بيروقراطية ولكن اتصال مباشر بين القيادات والشعب، وكتلة من الآمال المختلطة، إنها لن تستمر للأبد، ولكنه منظر مريح، لأول مرة فى حياتنا نشهد سعادة حصلنا عليها عن طريق العنف».

وفى ٢٣ مارس أعطى جيفارا حديثًا تلفزيونيًا تحت عنوان «السيادة السياسية والاستقلال الاقتصادى»، من خلال الاستيلاء الثورى على السلطة حصلت كوبا على استقلالها السياسى ولكنها لم تكسب بعد استقلالها الاقتصادى التى بدونه لن تكون دولة ذات سيادة سياسية.

الثورة يجب أن تكون جذرية وتقتلع جذور الشر التى تعانى منها كوبا من أجل القضاء على عدم العدالة وأولئك الذين يعارضون الإجراءات الثورية هؤلاء الذين يقاومون انتزاع سلطانهم وسطوتهم أعداء للثورة، والعمال يسهمون بحوالى ٤٪ من أجورهم لبرنامج التصنيع، وإنه الوقت لكى يتكاتف بقية أفراد المجتمع بالمساهمة بنصيبهم العادل فى التضحية الثورية.

إن كوبا لم تعد كوبا السابقة بل كوبا الثورة، والثورة هى الشعب، ثم تقدم خطوة أخرى ليقول كوبا والناس والثورة هم كاسترو، إنه الوقت أن تعتلى ظهر السفينة الجديدة للدولة، أو ننسحب مثل رجال (الجرانما) الذين وضعوا جانبًا حياتهم الفردية مستعدين للموت إذا كان من

الضرورى فى الحرب ضد باتستا - وهكذا على الكوبيين الآن أن يضحوا للهدف العام للاستقلال التام، والعدو سوف يرد، حذر جيفارا، وحينما يأتى جنود الثورة المضاده مدفوعين من نفس المحتكرين الذين تأثرت مصالحهم، يجب أن نحارب دفاعًا عن كوبا، وليس بوساطة أفراد يعدون على الأصابع، ولكن بالملايين ومعًا كما قال فيدل «الكل سينجو أو نغرق».

لقد نسى جيفارا نفسه، مهنته من أجل الثورة، ولماذا لا يستطيعون هم؟ ويعنى بذلك طلبة الجامعات الانفراديين وعقلية الطبقة الوسطى، وفى أوائل مارس رجع ثانية لجامعة هافانا ليذكر الطلبة بأن عليهم واجبًا يؤدونه فى تنمية اقتصاد كوبا، وليس هنا ازدواجية فى المبادئ، مع الطلبة المنعزلين عن الثورة، إن شعور الفرد بمهنته فقط ليس تبريرًا لتقرير طريقه الوظيفى، والإحساس بالواجب الثورى يجب أن يحل بدلاً منه واتخذ من نفسه مثالاً.

«أنا لا أظن أن المثال الفردى وأنا أتكلم إحصائيًا له أى أهمية، فأنا ابتدأت طريقى الوظيفى بدراسة الهندسة ولكنى انتهيت كطبيب ثم أصبحت قائدًا عسكريًا، والآن ترونى هنا كمتحدث، إن ذلك يعنى أنه بداخل الفرد الواحد لا تلعب المهنة دورًا حاسمًا، وأنا أظن أن الفرد يجب أن يفكر دومًا بالنيابة عن الجماهير وليس بالنيابة عن الأفراد. إنه لجريمة أن نفكر فى الأفراد لأن حاجات الفرد يمكن أن تضعف تمامًا فى مقابل حاجات المجتمع الإنسانى».

جيفارا كان يعمل على تصدير الثورة ومقاومة الاستعمار والطبقات المحتكرة فى كل أرجاء العالم، أسهم فى مناصرة الثوار فى الكونغو، ثم رحل أخيرًا إلى بوليفيا ليموت هناك برصاص الجيش البوليفى.

وفى نعى جيفارا قال فيدل فى جمع تجاوز المليون فى ميدان الثورة بهافانا «إذا كنا نريد النموذج للإنسان الذى لا ينتمى لعصرنا بل للمستقبل فأنا أقول من أعماق قلبى أنه ذلك النموذج بدون بقعة واحدة

على تصرفاته، وبدون بقعة واحدة على سلوكه، إنه «شى»، وإذا كنا نريد أن نعبر عما يمكن أن يكون عليه أطفالنا يجب أن نقول من قلوبنا كثوريين أقوياء، نحن نريدهم أن يكونوا مثل جيفارا».

وحينما سأله الضابط الذى أسرته قوته وهو جريح، هل أنت كوبى أم أرجنتينى؟ أجاب جيفارا، أنا كوبى، أرجنتينى، بوليفى، بيروى إكوادورى... إلخ هل تفهم؟

ماذا جاء بك إلى بوليفيا؟

ألا ترى الحالة التى يعيشها الفلاحون، إنهم يشبهون البدائيين، يعيشون فى حالة من الفقر تدمى القلوب، يملكون حجرة واحدة فيها ينامون ويطهون الطعام؛ لا ملابس يرتدونها، متروكون كالحيوانات.

كان جيفارًا غاية فى الشجاعة وهو يسير فى حماسه البالغ لتحرير أمريكا اللاتينية - ذهب إلى الفلاحين هناك ماركسيًا، ويبدو أنهم كانوا متدينون وجرعات الدعاية ضد الشيوعية كانت قوية لدرجة أخافتهم منها، فلم يتعاطفوا مع جيفارا الذى جاء ليحررهم، لم يساندوه وهو فى صراعه المرير مع القوات البوليفية، يبتعدون عنه ولا يقدمون له أية مساعدة يحتاجها، بل إنهم أرشدوا القوات التى كانت تطارده عن أماكن تردده واختفائه..

لم يكونوا مهيئين للثورة، ولا لتحرير أنفسهم من ربق الفقر والاستغلال، إنهم لا يعون شيئًا ولا يشعرون بذواتهم المفقودة، يعيشون كالحيوانات كما قال جيفارا.

حينما قبض عليه كان مصابًا فى رجله بإحدى رصاصات العدو لا يستطيع الحركة ممدًا على أرض الحجرة التى كان يختبئ بها - وفى حالته هذه لم يرحمه الضابط الذى توصل إلى مخبئه وأطلق عليه الرصاص بدم بارد فأرداه قتيلاً، وهكذا كانت أوامر القيادة العسكرية البوليفية على الرغم من أن المخابرات الأمريكية كانت تريده حيًا.

الصحوة الإسلامية

واليوم نجد قدرًا كبيرًا من شبابنا المتدينين قد أساءوا إلى الصحوة الإسلامية أو إلى الثورة الإسلامية التى بانت معالمها هذه الأيام وخاصة بعد نكسة ٦٧، ويرجع الفضل لهذه الصحوة الإسلامية إلى أهل النكسة أنفسهم أى إلى صانعى ثورة يوليو، فهذه الثورة هى التى أشاعت بين الناس الشعور بالعزة والكرامة والوقوف ضد القوة التى أرادت أن تهيمن على المنطقة، فى ثقة بالنفس واعتزاز بكرامة الإنسان العربى ومركزيته بعد أن ظن الناس أن المركزية للغرب وحده، هكذا وإن عانى الإنسان فى مصر الكثير من الضغط وعدم الاشتراك فى اتخاذ القرار على أيدى رجال الثورة أنفسهم. وإن جاء ذلك فى سياق معارك سياسية بين الثورة وخصومها. لم تكن الأمور قد استقرت للنظام الثورى الحاكم تحت ضغط المعارك الخارجية والداخلية، حتى يعطى حرية التعبير للجميع، بل هى طبيعة الأمور بالنسبة لكل ثورة فى مهدها، والتاريخ يشهد على أحداث الثورة الفرنسية فى بادئ عهدها، وفى مراحل الثورة الصينية وحتى الآن وربما تلك الأحداث المقيدة للحريات لا تعيب الثورة وهى تنتقل بالبلد من حال متردٍ إلى حال أكثر تطورًا ذلك إذا نجحت القيادات الثورية فى فعل ذلك، ويبدو أن تطور الأحداث فى فرنسا من عهد الثورة حتى الجمهورية الخامسة أدى فعلاً إلى بناء فرنسا الحديثة، كما فعلت الأحداث فى الصين، حيث تبوأت الصين اليوم مركزًا متقدمًا بين الكيانات الصناعية الكبرى.

أما فى مصر فمسيرة الأحداث بعد أيام الثورة الأولى وبالذات بعد وفاة عبدالناصر تدل على أن البلاد تسير فى حالة انحدار رهيب، ذلك

لأسباب عدة، أبرزها أن عبدالناصر وهب لجماهير الشعب المصرى مكاسب أنجزتها الثورة كمنحة للعمال والفلاحين دون أن يناضلوا أو يتعبوا لاكتسابها، وما جاء سهلاً ذهب سهلاً، فلم تستطع جماهير الشعب الحفاظ على مكاسب الأمة، القطاع العام، مصانع الأمة، التى بناها العمال المصريون بالعرق والدم بيعت بأرخص الأثمان لمصلحة طبقة رأسمالية مستغلة عفنة، واغتصبت الأراضى من الفلاحين، ولم يحاول الفلاحون والعمال المقاومة، قد يكونوا قاوموا، ولكن المقاومة كانت ضعيفة جدًا أمام قوم صمموا على سلب جموع الشعب حقوقهم لمصلحة فئة وبالأحرى عصابة تحكم البلد وفى النهاية الأمر لمصلحة أمريكا.

فقدت الحرية أهم أركانها وهى القدرة على التعبير عن الآراء المختلفة، ولعل رجال الثورة لهم عذرهم فقد كانوا حريصين على حماية الثورة ضد أعدائها فى الخارج والداخل، إلا أنهم أساءوا الاختيار لمعايير هذه الحماية وإجراءاتها.

وكان هذا الكبت للآراء بداية النهاية للثورة ومع نهايتها وانتكاساتها جاءت الصحوة الإسلامية، ومما زاد فى قوة هذه الصحوة وانتشارها، ما أنفقه أهل الخليج على نشر الروح الإسلامية الجديدة المتوثبة بما أنشئوه من مجلات وصحف إسلامية، وما أسسوه من دور ومعاهد إسلامية فى بلادهم وفى سائر بلاد العالم.

ولعل أخطر ما وقعت فيه هذه الصحوة اتجاه البعض لتكفير المسلمين لمجرد الاختلاف فى الرأى أو فى المذهب أو فى الموقف السياسى.

هذا وعدم رضانا عن التكفير لا يعنى أننا نقر أمثال نصر حامد أبوزيد أو حسن حنفى فيما يذهبون إليه - ونحن بدل أن نكفرهم نجادلهم بالحسنى ونردهم فيما أساءوا به إلى الإسلام. وننقل المعركة معهم إلى ساحة الفكر السياسى، ونوضح كيف أنهم يغازلون العلمانيين فى الداخل الذين لهم السطوة، ومثقفى الغرب فى الخارج الذين يغرونهم

بالسير فى سبيل النيل من الإسلام وعظمته، ويخدعونهم وهم يعاملونهم كأنهم أئمة المجددين للفكر الإسلامى المستنير.

وكان هذا التكفير ابنًا طبيعيًا للجمود الذى أصاب فئات معينة من شبابنا وشيبنا، فمن دخلوا إلى باب العلم والعمل من باب اللحاق بالصحوة الإسلامية منهم من سمع درسًا فظنه الدرس الوحيد، أو قرأ كتابًا فحسبه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه - ولم يعلموا أن للعلم وجوه عدة، وأن الآباء والأجداد اعترفوا بالاختلاف فى الفكر والفقه أو فى الرأى والعمل، وروى بعضهم عن بعض. وكانوا يدعون لمخالفيهم - قبل الموافقين، بالجزاء الحسن ويثنون عليهم خيرًا ولا يقولون فيهم مع الاختلاف مهما بلغ إلا قولاً لينًا كريمًا.

وإن أسوأ ما يضر بالصحوة الإسلامية هو العداوة التى يبديها البعض لمن يخالفنا فى الدين أو فى الحضارة - واعتبر هؤلاء أن الغرب كله شر والحضارة الغربية كلها فساد، والمواطنون غير المسلمين مواطنون من الدرجة الثانية، وهم غير مواطنين أصلاً، وغفلوا عن قوله تعالى: ﴿ وجعلناكم شعوبًا وقبائل لتعارفوا ﴾ ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولكنه تركهم مختلفين. بل أن الشريعة الإسلامية حمت حقوق الأخوة فى الوطن وفى الإنسانية - وحماها الفقه الإسلامى قبل أن تظهر كلمة التعددية - أو يسلم الناس - فى أى مكان - بجدوى التنوع وضرورته..

وبات لزامًا أن لا نترك الأجيال الناشئة بغير تحصين ناجع ليقاوموا هذا الفكر الغريب حتى لا تسقط فريسة له لا محالة. فالنفس تواقة إلى ما يملأ فراغها الروحى ويشغلها فى حياتها بما تظنه نافعًا ومفيدًا وبناء وإذا لم يشغلها أهل الحق به، استولى عليها أهل الباطل بباطلهم.

وربما لا يعير الكثيرون الانتباه إلى السبب الرئيسى للتطرف والغلو فى معاداة الآخر لدرجة إنكاره.. إن ما نتعارف على تسميته بالحركة الإسلامية اليوم قد ظهر فى أواخر العشرينيات من القرن التاسع عشر،

ولظهورها فى هذا الوقت دلالة، لأن من يراجع مطالعة التاريخ الحديث منذ الحملة الفرنسية فى أوائل القرن التاسع عشر، يتكشف له أن الغزو الاستعمارى الأوروبى لبلادنا قد جرى على مدار القرن التاسع عشر فى المجالات الاقتصادية والسياسية، والفكر والحضارة جميعًا، فضلاً عن الغزو المسلح، ويلزم الاعتراف بأن المقاومة الوطنية جرت ضد الغزو فى مجالاته المختلفة، ومنها الميدان الفكرى والحضارى للمحافظة على الهوية الذاتية للجماعة المحلية، وصار هذا الميدان من الصراع ممتدًا، تتصاعد حدته مع نشاط عوامل التغريب.

على أن هذا الوجه من أوجه الصراع الوطنى ظل ممتزجًا ومرتبطًا بالصراع الوطنى السياسى حتى قامت الحرب العالمية الأولى، وحتى نهايتها ونحن نلحظ فى مصر وسائر البلاد العربية ارتباطًا بين الحركات السياسية المقاومة للاستعمار، وبين التكوين الإسلامى فى المعتقد والحضارة، وبين حركات التجديد والإصلاح. وذلك على مدى القرن التاسع عشر.

ويمكن القول بأن الفكر الغربى كنظريات سياسية واجتماعية وكمصدر للاحتكام والشرعية، لم ينغرس فى أرضنا إلا فى أواخر القرن التاسع عشر وفواتح القرن العشرين على أيدى منابر ومدارس ذات صلات وثيقة بالوافد الأجنبى.

ولكنه حتى ذلك الوقت، بقى شبه مفصول عن الحركة الوطنية السياسية، ولعل الحزب الوطنى فى مصر يكون من الأمثلة الواضحة على ذلك، إذ ظل يقود الحركة بصفة إسلامية سياسية واجتماعية.

ولكن مع انتهاء الحرب العالمية الأولى فى عام ١٩١٨ وفى السنوات القليلة التالية، تبدل الموقف، وأهم أوجه التغيير تعلقت بثلاثة أمور، أولها: ظهور ما يمكن تسميته بالوطنيين المتغربين، أو بالوطنية العلمانية، وقيادة هذا التيار للحركات الوطنية، وانطباع مشروعه للاستقلال

السياسى بنماذج التيارات الحضارية الغربية، وبدا هذا العنصر كما لو أنه انتصار حاسم للعلمانية والتغريب، وثانيها، إلغاء الخلافة العثمانية الإسلامية فى تركيا، بما أفقد الإسلامية السياسية المؤسسة المجسدة لهويتها، وثالثها تجزئة البلاد العربية وتقسيمها أشلاء مبعثرة بين القوى الأوربية المنتصرة.

وفى هذا الظرف التاريخى، وقبل أن تمضى عليه سنوات قليلة ظهرت الحركة الإسلامية السياسية، وكانت قد انفصلت الحركة الوطنية السياسية بقيادتها عن حركة المقاومة الفكرية والحضارية للوافد الأجنبى، فاستوجب هذا الميدان جيشًا آخر وقادة آخرين. ولقد قوى المد التغريبى والعلمانى بعد أن ألبسته القيادة العلمانية الوطنية شرعية الوجود فى المجتمع وبعد أن تشكل نموذج الأحياء الوطنى على وفق صيغ الغرب فعظم الصراع واحتدم فى هذا الميدان، وصارت تقاوم فيه الحضارة والموروثة عن وجودها، فكرًا وعقيدة ولقد ألغيت الخلافة كمؤسسة جامعة، وزالت من الوجود وتناثرت البلاد أشلاء، فلزم لم الشمل من جديد، وليس صدفة، أن تظهر الحركة الإسلامية السياسية وتنمو سريعًا فى مصر، البلد الذى لم تكن العروبة كدعوة جامعة قد انتشرت فيه بعد.

ظهرت الحركة الإسلامية مع هيمنة التغريب وتصاعدت مع تصاعده، وهى تعتو مع عتوه، وفى إطار هذا الوعاء العام للسببية، يمكن إضافة أسباب أخرى مكملة وقد تكون صحيحة بقدر أو بآخر فى هذا الحيز من الصورة العامة.

ولو أننا بقينا على ديننا وتمكسنا بتعاليمه وصنعنا قوتنا وألفنا بين قلوبنا ما نزلت بنا هذه الكوارث، لقد تعرضت بلاد الإسلام لهزائم كبيرة، فليست الهزيمة الكبرى التى مُنى بها العرب بغزو أمريكا للعراق ومحاصرتها للمد القومى والوطنى العربى الأولى فى تاريخ الدولة

الإسلامية. ففى القرن السابع الهجرى كان كل شىء يؤذن بزوال دين محمد ﷺ كما يقول «فيليب حتى» فى كتابه «تاريخ العرب» فقد جاء الصليبيون من أوروبا جحافل لا آخر لها، واستطاعوا اقتحام عواصم عربية كبيرة، فكروا فى الهبوط إلى شمال الحجاز ليبلغوا القبر النبوى، وفى الوقت نفسه اجتاح المغول شرق العالم الإسلامى، ودمروا المدن العظام ولم يبق إلا أن تنطبق ذراعًا الكماشة حتى يمسى العالم الإسلامى كله فى خبر كان.

ونجا المسلمون من هذا البلاء الماحق واستأنفوا رسالتهم، لكن الجماهير المؤمنة فى هذا العصر البعيد رزقت قادة من طراز رفيع أمثال صلاح الدين الأيوبى، وبيبرس، وقطز لقد مزقوا المغيرين فى هذه المعارك العظام وأنقذوا أمتهم من دمار محقق، فهل لدى المسلمين المعاصرين أمثال هؤلاء...؟

والإجابة مخزية، لقد ظهر فى العالم الإسلامى رجال، وصفوا أنفسهم بصفات سمية، وأحاطت بهم جموع مخدوعة، وكان الهتاف لهم يشق عنان السماء، والغريب ليس فى هزائمهم المتتابعة بل الغريب أنهم منحوا العدو أرضًا جديدة، وأضافوا إليه قوى هائلة حتى وكأنهم يقاتلون معه لا ضده.

لقد فتحت بفضل القادة العرب، بوابة الجحيم على الأمة، وبعد أن كان هناك حاكم أو اثنان، أو حتى أربعة يتعاملون مع القوى الأجنبية بصفتهم تابعين عملاء متخاذلين يقدمون للعدو كل ما يطالبهم به، بدأ الطابور يكبر، عبر مسلسل كبير للانبطاح والاستسلام والرضوخ للأوامر الأمريكية.

إن اليهود أسروا المسجد الأقصى، وبين الحين والحين، تذهب أفواج منهم لإقامة الشعائر اليهودية به، والخطة المرسومة أن يهدموه يومًا ليبنوا على أنقاضه هيكل سليمان.

وحملات التبشير ماضية فى طريقها ليكون الإسلام دينًا ثانويًا فى أفريقيا وآسيا تمهيدًا للخلاص منه والغزو الثقافى يدحرج العرب عن مواريثهم ليتخلوا عنها طائعين قبل أن يتخلوا عنها بحد السيف.

لقد أفلح الغزو الثقافى فى تكوين أجيال باردة الأنفاس إزاء دينها ومطالبه، ولعلها تحسب الارتقاء النفسى فى هذا البرود، فهى تتظاهر به أو تستند إليه، بينما نجد اليهودى من بولندا يعانق أخاه من الحبشة مظاهرًا له معتزًا به.

والانتماء الغالب الجامع هو الذى جعل الكردى صلاح الدين يقاتل من أجل فلسطين ليردها إلى العرب، وهو الذى جعل قطز يصيح «واإسلاماه» عندما لحظ بعض الوهن فى الجيش المصرى، فكان هذا الصوت الراعد المؤمن بدء التحول فى المعركة كلها، فقتل «بلبغا» قائد التتار وسيطرت روح الإسلام على الساحة كلها.

ولعل قطز وهو أصلاً من تركستان، كان أقرب إلى المغول بدمه، ولكن الإسلام كان آثر لديه والصق بقلبه.

ومن اليسير أن نرى القومية الضيقة تعمل عملها بين المسلمين الآن، وتربط الحرب والسلام بحدود مفتعلة، ولو بقى المسلمون على سليقتهم الأولى لتغيرت أوضاع كثيرة.

وليس المهم هو الولاء السياسى، على ضرورته الماسة، بل المهم هو بناء الأخلاق والمهم أيضًا فى الكيف لا الكم، رجال عاهدوا الله أن ينتصروا لأمته، لا بالكلام ولا بالطنين ولكن بصنع القوة.

إن الجمع الهش الهامد فهو غثاء والناس ألف منهم كواحد، ويكفى ما أذابته العلمانية والماسونية من ولاء خالص لله ودينه وعبادته حتى فقد المرء رباطه مع أمته وأخوته.

الأمة فى حالة تحد كبير - ومقاومة التحدى فى بناء مشروع نهضوى إسلامى، وهو مشروع لا يقصد بناء العداء أو تقويض الحضارة الغربية،

ولكنه يهدف فى المقام الأول إلى صيانة هويتنا، ذاتيتنا الحضارية فى مواجهة محاولات التغريب والتذويب الدائبة، والمؤثرة قطعًا فى بناء الأمة وكيانها.

وفى سبيل تحقيق هذاالمشروع علينا أن نفهم الإسلام فهمًا صحيحًا كعقيدة وشريعة ونظام أخلاقى أراد الله أن يكون بناء حضاريًا شاملاً لعالم متحرك متغير متطور ولشعوب مختلطة الأجناس والتاريخ والثقافات.

ولا أرى فى ذلك أى تجديد فى الفكر الإسلامى بل إحياء الفكر الإسلامى الصحيح، بعد أن طمسته أفعال الأدعياء، وخلخلته المذاهب والفرق، ومن الفهم الصحيح علينا أن نقابل التحدى بالعمل السريع مستخدمين كل أسلحة العصر ووسائله، حتى يخرج المسلمون من التخلف إلى التقدم، ومن التبعية إلى الاستقلال، ومن الفقر والاعتماد على الآخرين، إلى الغنى والاعتماد على الذات، فى إطار التعاون وتبادل المنافع مع الآخرين، وعلينا أن نتحدى الانتقال من الفرقة والتمزق إلى نوع من التوحد فى الفكر الأساسى، بعيدًا عن استهلاك الطاقات فى معارك بينية، وعداوات صغيرة حول قضايا هامشية، أكثرها مغلوط لا قيمة له، ولكنها تترك الجسد الإسلامى كله مرهقًا مكدودًا - وينصرف العقل المسلم عن مواجهة القضايا الحقيقية الكبرى.

وتظل سيطرة الأنظمة العربية الهاجس الأكبر الذى يحول بعض الجماعات الإسلامية السياسية إلى استخدام العنف، فهى تعتقد أن الحكومات تسعى بإصرار إلى التصفية الجسدية لكل فصائل العمل الإسلامى، متذرعة بدعاوى التطرف والإرهاب، وإن المستهدف النهائى هو الإسلام ذاته كعقيدة وشريعة ونظام للحياة. والحقيقة ربما تبدو فى عقول ووعى أفراد تلك الفصائل بأنهم يتحركون داخل دائرة «الدفاع المشروع عن النفس». وعن العقيدة والحقيقة وعن الحق فى الدعوى إليهما.

ويبدو أن هناك مأزق لا نستطيع أن نتخطاه وهو تدخل أمريكا فى شئون الدول الأخرى ومطالبتها الأنظمة العربية والإسلامية بمواجهة التيارات الإسلامية وهى تملى قائمة بأكملها على الأنظمة العربية تتضمن حزب الله وحماس والجهاد الإسلامى، فى حين أن هذه الجماعات الإسلامية هى التنظيمات الوحيدة التى تقوم بعمل رئيسى فى مقاومة الاحتلال الإسرائيلى والغزوة الأمريكية الشرسة.

ولقد امتدت قائمة الإرهاب الأمريكية لتشمل المقاومة فى العراق ضد القوات الأمريكية الغازية وتسكت الحكومات العربية على ادعاءات أمريكا، فى حين تجد الشعوب العربية أن الأمل فى وقف الزحف الأمريكى إلى بلاد عربية أخرى هو فى انتصار المقاومة فى العراق، فهى لحد الآن نجحت فى كبح شهوة أمريكا لغزو سوريا وإيران بعد أن وجدت أمريكا نفسها فى مستنقع المقاومة العراقية الباسلة التى تستنزف قواتها يوميًا.

والمأزق الآخر وهو الأهم عدم سماح الأنظمة العربية الحاكمة بالممارسة الديمقراطية التى من خلالها تمارس التنظيمات الإسلامية العمل فى النور حسب قواعد اللعبة التى تقرها الشرعية وقوانين العمل السياسى المنضبط، فهى دائمًا تردد خوفها من أن تصل الأحزاب الإسلامية إلى الحكم كما حدث فى تركيا وذلك لعدم ثقتها فى كوادرها القيادية.

وإذا أردنا دخول العصر من بوابة الإسلام أم من غيرها فعلينا أن نعيد الروح الكريمة السمحة التى يؤكدها النبى فى مناسبات كثيرة، وإن تجربة قيادة المجتمع دفعت الرسول ﷺ إلى تقديم الدروس الكثيرة التى تذكر فى مواضع كثيرة غير هذا الكتاب. فى الوقت الذى ركز على مسئولية المسلمين عن شؤون المجتمع فى أقوال منها «أنتم أعلم بأمور دنياكم» «وما رآه المسلمون حسنًا فهو عند الله حسن».

وجرى التأكيد على أن خلفاء النبى تعلموا منه، فلم تكن النصوص، ولا السيف طريقهم إلى الحكم إلى أن اغتصبه معاوية، وقد جاء الإقرار بما تقدم فالخليفة الأول أبو بكر الصديق أقر بأن الشرعية التى يكتسبها هى من الشعب، وإلا لما رأى نفسه أنه لا يعلوهم وليس أفضلهم «أما بعد فإنى وليت عليكم ولست بخيركم» وهذه العبارة تنطوى على درس لمن يتولون أمور الناس، درس فى التواضع وسمو الأخلاق - ولماذا أصبح الحاكم بعد ذلك بوقت قصير مقدسًا ولا يزال؟ - كما أن مطالبته فى الخطبة ذاتها التى ألقاها أثر مبايعته بأن يكون الناس معه ما كان على حق فإن رأوه انحرف فليحاسبوه «إذا أحسنت فأعينونى وإذا زغت فقومونى». وفى هذه العبارة ما يدل على التوجه الإسلامى للديمقراطية على عكس ما يقول من فهم الإسلام خطأ. إن شرعية الحاكم مستمدة من الشعب، ومصدر السلطة هى مصدر المحاسبة كما أقر أبو بكر رضي الله عنه.

هذه التربية الإسلامية هى التى دفعت عمر أيضًا للاعتراف بالخطأ دون خوف من أن يكون فى ذلك انتقاص من مكانته، ففى مواجهته مع امرأة لم يتردد فى القول «أصابت امرأة وأخطأ عمر».

ما بالكم لو أن إنسانًا مهمًا أوتى من مكانة وجاه وقف أمام حاكم مسلم من حكام هذا الزمن وبين له خطأه جهرة؟ أكان هذا الحاكم يعترف بالخطأ؟ وما الثمن الذى سيدفعه من يواجه حاكمًا بهذا الشكل؟

ولو كنا نعتقد كثيرًا فى ديمقراطية الإسلام وفى مرونة تعاليمه، لا يحق لنا أن نسمح بالاختلاف الشديد فى مصطلحات الدين وروياته وفتاويه، وقد يبرر أصحاب المناهج الذين يقرون بالاختلاف آراءهم بمقولة منسوبة إلى على بن أبى طالب كرم الله وجهه وهى أن القرآن حمَّال أوجه، وعليه فالباحث الأصولى المتمسك بهذا المنهج وينتقى الرأى الذى يهواه سلفًا، وينتقى له الأدلة من التراث، وما يشاء من الآيات القرآنية، ويتجاهل سواها وهو مطمئن لمقولة إن «القرآن حمَّال أوجه».

إنها الفوضى بعينها أن ينتقى كل صاحب رأى من القرآن ما يدلل به على رأيه. ويكون للمخالف للرأى ما يختاره أيضًا من القرآن ما يؤيد وجهة نظره.

وهل فعلاً قال الإمام على هذا الكلام عن القرآن؟ إن القرآن الكريم ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ (هود: ١) وهو كتاب لا مجال فيه للعوج ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ (الزمر: ٢٨).

وهو كتاب لا مجال فيه للاختلاف ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ (النساء: ٨٢).

وإذا كان القرآن لا تتناقض آياته ولا تتصادم حقائقه وليس كما يقولون «حمال أوجه»، فلماذا يتبارزون فى اختلافاتهم بالآيات؟ ولماذا ينتقى كل فريق ما يؤيد وجهة نظره فى مواجهة الفريق الآخر؟

تقع الإجابة على السؤال فى مسألة المنهج الذى يتبعه كل باحث، والخطأ فى المنهج أن تحمل رأيًا مسبقًا وأنت تريد أن تناقش مسألة دينية، إن المنهج العلمى يتطلب الحيادية وعدم التمسك بفكر أو فلسفة سابقة للقراءة وتنعكس على الباحث فى جميع ما يصل إليه من الاستنتاجات.

والدولة الإسلامية ليست دولة دينية. وواقع الأمر أن الرسول صلوات الله عليه أقام دولة مدنية وبقى منها أصولها القرآنية، وما تواتر فى التاريخ والسيرة النبوية عن إقامة تلك الدولة فى الجزيرة العربية، تلك الدولة التى ما لبثت أن غيرت تاريخ العالم، ولكن ما حدث بعد ذلك أن الدولة الإسلامية المدنية تحولت إلى استبداد سياسى والحكم القبلى بعد الفتنة الكبرى وتأسيس الدولة الأموية، ثم تحول الحكم الاستبدادى القبلى إلى حكم دينى سياسى فى الدولة العباسية واستمر هذا النظام سائرًا إلى سقوط الدولة العثمانية تحت اسم الخلافة. لقد اصطلح

المؤرخون على تسمية الدولة المدنية الإسلامية بعد النبى بالخلافة الرشيدة أو الرائدة، وأطلقوا على الدولة التالية مسمى الخلفاء فقط أى لم يكونوا خلفاء راشدين - وهذا فى حد ذاته دليل على تحول هائل فى نظام الحكم دفع المسلمون ثمنه غاليًا ولا يزالون - وقد تم تدوين التراث فى عصر الخلفاء غير الراشدين، وذلك التدوين تجاهل التدوين الحقيقى لدولة النبى والراشدين، وقام بتدوين ما يتفق وأيديولوجية الدولة الدينية العباسية.

والوظيفة الأساسية للدولة الإسلامية نحو أفرادها إقامة القسط وتوفير الأمن الداخلى والخارجى، وأن أمن المجتمع الداخلى ككل، يعنى أن يكون له جيش قوى يرهب الأعداء من الاعتداء عليه ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ (الأنفال:٦٠). وهذا الاستعداد لصد العدوان وإرهابه يقع ضمن مشروعية القتال فى الدولة الإسلامية وهى مشروعية تتفق مع القسط والعدالة، فالآيات التى تحض على القتال هى أوامر تشريعية، تحض على القتال فى الدفاع ورد الاعتداء عن المسلمين: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (١٩٠) وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (١٩١) فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٩٢) وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ (١٩٣) الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ (البقرة: ١٩٠، ١٩٤). ثم المقصد النهائى للقتال هو أن يكون لمنع الاضطهاد والإكراه فى الدين، يقول تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ

﴿وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾ (الأنفال: ٣٩) ومعنى أن يكون الدين كله لله أن يكون بدون كهنوت. وإن الناس أحرارًا فى اختيار ما يشاؤون من عقائد حتى لا تكون لأحدهم حجة أمام الله تعالى يوم القيامة.

إذن فالعدل والقسط هو أساس التعامل مع العدو الخارجى، ويكون بتكوين دولة قوية بجيشها وأهلها، لتؤكد حق المجتمع المطلق فى الأمن، كما أن من حق الأفراد النسبى أن يعيش كل منهم آمنًا وعلى أساس التساوى، وبحيث لا يستأثر فرد واحد بالحماية دون الآخر، وحتى لو كان ذلك الفرد هو رئيس الدولة. ورأينا كيف كان عمر بن الخطاب ينام تحت شجرة، ولم نسمع أن النبى فى المدينة كانت له حراسة، إذ يتساوى كل فرد مع الآخرين فى استحقاق الأمن.

obeikandl.com

obeikandl.com

السلفية المنهجية

يقرر الجابرى أن السلفية نوع من المقاومة الذاتية لأمراض داخلية، ومن ثم تتسع عنده حمولة مفهوم السلفى ليشمل فى آن واحد محاربة الاستعمار. ومحاربة البدع والتقاليد الشعبية، والدعوة إلى التجديد والتحديث فى كل مجالات الفكر والسياسة والاجتماع.

ويؤكد أن جميع التيارات السلفية من الحسن البصرى إلى محمد بن عبدالوهاب إلى الأفغانى ومحمد عبده، وإنما كانت أحد مظاهر التجربة التاريخية للأمة، أحد مظاهرها الإصلاحية، إن النموذج المنشود يجب أن يشمل جماع التجربة التاريخية لأمتنا مع الاستفادة من التجربة التاريخية للأمم التى تناضل مثلنا من أجل الوجود والحفاظ على الوجود. وأيضًا ولم لا؟ من التجربة التاريخية للأمم التى أصبحت اليوم تفرض حضارتها كحضارة للعالم أجمع.

ويؤسس رؤيته على أن السلفية كانت كافية وفعالة وإجرائية يوم كنا وحدنا نبنى حضارتنا القوية، أما الآن فلابد من التعامل بمنطق جديد تفرضه التغيرات، منطق الحضارة المعاصر، ويتلخص فى مبدأين العقلانية والنظرة النقدية فى الاقتصاد والسياسة والعلاقات الاجتماعية والنظرة النقدية لكل شىء فى الحياة؛ الطبيعة والتاريخ والمجتمع والفكر والثقافة والأيديولوجيا».

وعلى هذا فإن «منطق السلف الصالح» التى تمثل المدينة الفاضلة فى التجربة التاريخية للأمة كان يقوم على أن الدنيا مجرد قنطرة إلى الآخرة، وقد أدى هذا المنطق وظيفة يوم كان العصر عصر إيمان فقط وليس عصر علم وتقنية ومصالح وأيديولوجيات وصراعات دولية وطموحات للهيمنة العولمية.

وفى مقالته «السلفية غير.. والماضوية غير» يتخذ الجابرى من السلفية الوطنية عند علال الفاسى نموذجًا مغايرًا لأنواع أخرى من الفهم تجعل السلفية ماضوية، أى الرجوع إلى الماضى والتمسك به لذاته. واعتبار سلوك السلف نموذجًا صالحًا لكل وقت ولكل مكان. كما هو شأن التيار الحنبلى المتشدد المنسوب إلى ابن عبدالوهاب ومن بعده، وخاصة أتباعه المتشددين الذين طبعوا مذهبه «بالجمود على التقليد» فجعلوا السلفية مذهبًا «ماضويًا» حتى الأعماق، فهو يرى «السلفية الوطنية» أقرب إلى المنهج منها إلى المذهب، ويثمن قول علال الفاسى «والذى ينظر فى تاريخ الحركات العامة فى الدنيا كلها يجد أنه لم تقم ثورة مفيدة فى بلد ما إلا سبقتها دعوة للرجوع إلى الماضى البعيد ذلك أن الرجوع الذى يظهر فى شكل تقهقر إلى الوراء هو نفسه تحرر كبير من أشياء كثيرة وضعتها الأجيال العديدة والعصور المختلفة، والتحرر منها هو تخفيف يسهل السير إلى الأمام بخطى واسعة وإزالتها من الطريق تفتح أفقًا عاليًا يهدى السائرين للغاية الصحيحة التى يجب أن يوجهوا أنفسهم إليها».

ومن ثَمَّ يقرر الجابرى أن الرجوع إلى نقطة مضيئة فى الماضى ليس من أجل الماضى بل من أجل التحرر مما تراكم من انحرافات وظلمات فى المسار الذى يفصل الحاضر عن تلك النقطة المضيئة، والهدف من هذا الرجوع ليس التثبت عند نقطة فى الماضى ولا الجمود فيها، بل الهدف هو الانتظام فيها من أجل مواصلة المسيرة من جديد فى الاتجاه الذى يمد المستقبل الآتى بسند مما يسميه بالمستقبل الماضى أى الذى كان مشروعًا للتقدم فى الماضى قبل أن تجهضه الانحرافات والجمود والانكسارات.

بهذا المعنى يتفق الجابرى مع مقولة الفاسى «إنه لم تقم ثورة مفيدة فى بلدها إلا سبقتها دعوى للرجوع للماضى البعيد» والمقصود بالماضى

هنا البعيد ليس بالضرورة ذاك الذى يمتد بعيدًا عن الحاضر بقياس الزمن، بل المقصود ذاك الذى يقع بعيدًا عن الحاضر بقياس التقدم والتخلف.

والجابرى يرى أن دعوة الإسلام نفسها لم تكن سوى توظيف لهذا النوع من السلفية المنهجية فبعد أن يشرح الجانب المنهجى يطبقه على الدعوة المحمدية نفسها، فقد دخلت فى صراع مكشوف وضار مع قوى التقليد التى رفعت شعار «حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا» ولكن بدلاً من أن يتجه الإسلام إلى المستقبل وحده ويحارب الماضى محاربته للحاضر أو يتنكر له جملة وتفصيلاً، طرح على العكس من ذلك شعار الرجوع إلى «الأصل» إلى دين إبراهيم جد العرب، ولكن ليس من أجل استعادته كما كان فى الأصل قبل تحريفه، لقد تم تكثيف الماضى العربى كله فى نقطة واحدة هى ﴿مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾ (الحج:٧٨) والارتكاز عليه لتحقيق قفزة تاريخية يتم من خلالها وبواسطتها تجاوز عبادة الأصنام إلى دين جديد سيحطم أصحابه الأصنام ويقضون على سلطة حماتها.

لقد انطلقت الدعوة الإسلامية والنهضة العربية الأولى من الانتظام فى تراث، لكن ليس لتثبت عنده جامدة ساكنة، بل لترتكز عليه فى عملية تجاوز كل الموروث القديم، وتشييد تراث جديد.

إن سلفية الأفغانى ومحمد عبده النهضوية كانت نقلة نوعية قياسًا مع سلفية محمد بن عبدالوهاب أما السلفية التى تسمى نفسها اليوم بالسلفية الجهادية فهى نقلة نوعية مغايرة ترتبط بالوهابية على صعيد السلف، فهى من هذه الناحية تكوص بالنسبة للسلفية النهضوية الإصلاحية، ولكنها من ناحية أخرى تجاوز لها من حيث قفزها على القطرية والوطنية. وتطلعها إلى التحول إلى عولمة مضادة، تجسم ما يسميه الجابرى بالنقيض الخارجى للأمركة (العولمة الإمبريالية الأمريكية).

obeikandl.com

السلفية الجهادية فى مقابل النزعة الاستعمارية الغربية

لم تبتعد النزعة الاستعمارية فى يوم ما عن الاستراتيجية الغربية للتعامل مع الإسلام والدول الإسلامية، فهذا شيخ المستشرقين «برنارد لويس» ينتهى فى كتابه عن العلاقة المتوترة بين الإسلام والغرب "What went rong" إلى وضع المسلمين أمام مسئولياتهم، فإما الإذعان إلى الحداثة، كما يتحدد مفهومها، ويستقيم مدلولها فى بيئتها الغربية الأصلية، وذلك بالإفصاح عن استعدادهم ورغبتهم فى التلمذة على أيدى معلميهم المسيحيين شأنهم فى ذلك شأن اليابانيين وغيرهم من قبلهم، وإما الاستعداد لاستقبال استعمار جديد، يتولى عوضًا عنهم، تحرير عقولهم من قيود التمذهب، وتخليص اقتصادهم من قبضة الفساد والانحراف، وعتق نسائهم من تسلط الرجال، وأخيرًا إنقاذ مواطنيهم من قبضة الاستبداد السياسى وكما أن قراءة هذا المستشرق فى التاريخ والواقع الإسلاميين تحمل القارئ على الاعتقاد بعدم قدرة المسلمين الشرقيين على إنجاز كل ذلك بمحض إرادتهم، فإنها كذلك تحمل هذا القارئ على التسليم بشرعية الحرب والتدخل العسكرى الاستعمارى فى البلاد الإسلامية والشرق أوسطية على وجه الاستعجال، ولا يتحرج هذا الباحث الذى يدعى العلم بشئون الإسلام أن يصور العلاقة المتوترة بين الإسلام والحداثة على نحو يفهم منه ضمنًا وأخرى تصريحًا - أن خروج الاستعمار من البلاد الإسلامية كان خروجًا مبكرًا، حيث إن الغرب، وإن وفق فى تحرير العبيد والذميين فى هذه البلاد بفضل دخوله إليها، فإنه لم يقم بما فيه الكفاية لتحرير المرأة والثقافة، ويوحى لنا التحليل

الصادر عن هذا الباحث الذى يزعم الإطلاع على دخائل نفوس المسلمين المشرقيين أنه لابد للاستعمار من كرَّة أخرى حتى ينجز ما كان يلزم إنجازه فى المرة الأولى.

إن فى عمل المستشرق «برنارد لويس» ما يجعله يصب فى ثقافة التحريب كما ترتسم معالمها الكبرى عند «صمويل هنتنجتون» صاحب نظرية الصراع الحضارى وأحد الموقعين على رسالة المثقفين الأمريكيين المساندين لاستعمال القوة العسكرية. وإن اختلفت طرائق إعلان الحرب عندهما، فينسجم كل منهما مع طرحه حيث يسلم مقاليد القرار الأخير إلي حكومة يرأسها رجل سبق أن تنكر صراحة للقيم الكونية وللقرارات الدولية.

ولقد درج تعبير محاربة الإرهاب على لسان أفراد من الحكومة الأمريكية بعد أحداث نيويورك، وما لبث هذا المفهوم الجديد أن ارتقى إلى رتبة المفهوم الإجرائى إذ تولى النظر فيه أهل السياسة وأهل الفكر من مختلف أقطار العالم، ويستمد هذا المفهوم الجديد مكونات مدلوله من سياقه الأصلى، وهذا السياق هو على وجه التحديد خطابات رئيس الولايات المتحدة بعد ١١ سبتمبر، وقد بدا فيها متأثرًا بالآراء السياسية للمحافظين الجدد وبالمواقف الدينية للمسيحية الأصولية وواقعًا تحت ضغوط رجال المال وأرباب النفط وصناع السلاح.

ونحن إذا تأملنا الخطاب الذى وجهه إلى الكونجرس فى ٢٠ سبتمبر ٢٠٠١، وجدنا أن أحد المكونات الدلالية لمفهوم «محاربة الإرهاب» هو «النزعة المانوية»، وإذا شئت قل النزعة الأثنية ومعلوم أن هذه النزعة فى صورتها العامة، تذهب إلى القول بوجود تصارع فى العالم بين مبدأين أصليين اثنين لا ثالث لهما، أحدهما مبدأ إيجابى ينبغى العمل على جلبه، والآخر مبدأ سلبى ينبغى العمل على دفعه.

وتجلت هذا النزعة فى هذا الخطاب عند الجواب عن سؤال

الأمريكيين «كيف يمكننا أن نخوض الحرب وننتصر فيها؟» إذ يقول صاحبه ما نصه:

«يجب على كل بلد فى كل جهة من العالم، أن يتخذ قراره إما إنكم معنا وإما إنكم مع الإرهابيين، ومن الآن فصاعدًا، كل بلد يستمر فى إيواء الإرهابيين ستعده الولايات المتحدة نظامًا معاديًا»، وحينئذ لا عجب أن يرفع بعض الأوربيين شعار «كلنا أمريكيون»، إذ ليس لهم خيار آخر إلا «كلنا إرهابيون» وهكذا يظهر أن المانوية التى يتأسس عليها مفهوم محاربة الإرهاب تأخذ بالتقابل بين ميدأين هما مبدأ النسبة إلى الذات الأمريكية ومبدأ النسبة إلى الآخر الإرهابى، هذه هى المانوية الجديد.

لقد خرجت المانوية الجديدة من مكمنها، فهى متأصلة رسخت مع بداية تكوين الولايات المتحدة، التى بنيت على عنجهية منذ أن وجدت وهى تبنى تقدمها على إفناء الأعراق الأخرى وعلى طمس الثقافات والحضارات والفكر المخالف، وطوال حكم كلينتون ومن بعده بوش، والإعلان الأمريكى يطرح العداء المستحكم بين أمريكا وما أطلقت عليه محور الشر، العراق، إيران، وسوريا، وهى لم تخف نيتها فى احتواء العراق وإيران وينظر لهذه الفكرة السفير الأمريكى الصهيونى إنديك.

ومهما قيل عن النظام الحاكم فى العراق، ومهما تكن دكتاتوريته، وما اقترفه فى حق شعبه، ولسنا ندافع عن شخص ولا عن نظام، فالعدوان والعدوان الذى سبقه عام ١٩٩١ وما تلاه من حصار، وقائع تبين أنه لا يمكن تصور ديكتاتورية ولا همجية دموية أكبر من التى أفصح عنها بوش الأب والابن معًا وسخرا لها المجتمع الدولى بكامله، أخذا الشعب بكامله بجريرة نظام، وبوش وشارون ليس أقل دموية وبطشًا ودكتاتورية.

والمتبع لكلمة القس فرانكلين غرانغ أثناء تنصيب الرئيس الحالى، ولخطب بوش منذ وصوله إلى الحكم يلاحظ أنه لم يتوقف عن تكرار العبارات التى تنم عن حقد متجذر للإسلام، مثل أن بوش يحمل رسالة

ومثل «الخير والشر» ومحور الشر، وحروب صليبية، ومن ليس معنا فهو ضدنا والحرب على الإرهاب وأن الله بعثه رحمة للبشرية.

وعلاوة على هذا الحقد الدفين الذى يضمره بوش للإسلام، فإن الغرب المتقدم يعانى من تبعية مطلقة فى موضوع الطاقة للعالم العربى والإسلامى بشكل أساسى، مما يطلب ويتطلب الهيمنة عليه والتحكم فى حكامه وشعوبه.

ولقد جاء موقف بوش من شارون ومساندته له والوقوف وراء إسرائيل فى محاولة ضرب الانتفاضة قبل ١١ سبتمبر - ومما سردناه يتضح تمامًا أن الحرب مع الولايات المتحدة كانت آتية لا ريب فيها سواء وقعت أحداث ١١ سبتمبر أم لم تقع.

فبوش الابن إلى جانب ما يمثله طاقمه السياسى من أطماع اقتصادية يجسد أيضًا التطرف الدينى ولم يعد خافيًا أن بوش ينتمى لجماعة دينية هى الأكثر تطرفًا تسمى المسيحية الإنجيلية وتضم أكثر من ١٦ مليون منتسب، وهى الأكثر تعاطفًا مع اليهودية المتطرفة، والأكثر انتصارًا لأطماع إسرائيل فى الشرق الأوسط، وقد حمل بوش إلى البيت الأبيض إلى جانب أباطرة الاقتصاد الحربى والنفطى - جماعة التطرف الدينى، وإليهم يعود فى كل قراراته.

ويومًا بعد يوم يتأكد للرأى العالمى بأننا ننساق عنوة، وتحت دفق من الإكراهات السياسية والاقتصادية والعسكرية، إلى عصر المفارقة الأمريكية، هذا العصر الذى يحول دون تشكل لتوازن دولى جديد، من شأنه - على الأقل فى ظرف هذا الاختلال الدولى لما بعد الحرب الباردة، أن يحجم من سيطرة ديكتاتورية القطب الواحد، إذ أصبح هذا القطب قوة هائجة لا تخجل من مفارقاتها بل ترى فى كل دعوة تحثها إلى التراجع لحدودها الطبيعية تهديدًا واعتداءًا، فلقد كانت المرحلة السابقة قبل انهيار الاتحاد السوفيتى، مليئة بالعثرات التى حالت دون

تحقيق الدولة العظمى لحلمها فى أن ذلك القرن قرن أمريكى بامتياز، وهو قرن مثقل بمواجع وآلام راح ضحيتها ملايين من البشر، لكنهم راحوا عبثًا ليظل السؤال حيًا فى الأذهان! ما الذى تغير بالفعل خلال هذه الحقبة من سياسات النفوذ والأطماع الإمبريالية؟

إن المعركة كانت آتية لا ريب حتى ولم تقع أحداث ١١ سبتمبر، وذلك بسبب الأفعال الفاضحة للمفكرين والمثقفين العملاء الذين أصروا فى دعواتهم على سحق كل مقاومة عربية للتدخل الأمريكى السافر فى شئوننا وفى محاولة فرض النفوذ الإسرائيلى على المنطقة العربية.

لقد أثبتت الأحداث الأخيرة التى تمر بالأمة العربية بعد انحراف القيادة المصرية فى أعقاب مؤتمرات كامب ديفيد واتفاقيات السلام مع إسرائيل، أن أغلب نخبنا الذين انتدبتهم وكالات الاستخبارات والاستعلامات الأمريكية للتبشير برسالة أمريكا التحضيرية، يسعون إلى تدعيم حرب أمريكا النفسية محاولين إقناع الرأى العام العربى بأن القوة الأمريكية قوة لا تقهر، وأن على المرء أن يحوقل قبل الاستسلام بل أن يحمدل لبدء الاندماج فى المخطط الأمريكى لتحقيق التحضر - وربما لا توجد نخبة أو معارضة صادقة يصدق المنتسبين إليها تقول بأن الاستعمار يمكن أن يكون قوة تحرير فضلاً عن التحضر إلا بين علمانى العرب الذين يجمعون بين بواقى الاستعمار القديم ممثلة فى مزاعم التنوير الفرنسى والغربى بوجه عام المعتمد على التبشير الكاثوليكى والشيوعى وإرهاصات الاستعمار الجديد ممثلة فى أوهام الديمقراطية الأمريكية المعتمدة على المعمدانية والليبرالية.

وقد انضم إلى هذا الجوق كل الذين سيطر عليهم حال الانهزام أمام الحرب النفسية التى صاحبت المغالطات الإعلامية للمعركة الحالية تصوروا أمريكا على أنها قد انتصرت فيها انتصارًا ساحقًا وليس من العجيب أن يكون المعلقون العرب فى التلفزات العربية الرسمية أكثر

حزمًا فى حديثهم عن النصر الأمريكى من الأمريكيين أنفسهم. وإذا أنهم فى الحقيقة يعبرون عن نفس الموقف الذى كان يدعو إلى الحسم الحربى السريع، وبات يعبر عن قلب الصفحة الأسرع تخوفًا من طول المعركة وما قد يؤدى إليه من نتائج على الأنظمة التى تمول هذه التلفزات.

كان المواطن العربى يرى النخب السياسية التى تهيم الآن بالديمقراطية البرجوازية هيامها السابق بالديمقراطية الشعبية يواصلون الحديث عن قوة أمريكا التى لا تقهر، ويرى الحكام العرب خاضعين تمامًا للمشيئة الأمريكية،وهب البعض رافضًا لما يجرى ولم يذعن لأنظمة حصرت المجتمع فى الدولة، والدولة فى النظام، والنظام فى شخص الزعيم، وبات يصبو إلى تحرر الدولة من نظام غير شرعى، وتحرر النظام من زعامة مستندة إلى القوة المادية لا إلى القوة الروحية وعلامة ذلك بداية عودة النظام والمقاومة من المساجد دون سواها لكونها الخير الوحيد الذى تتحدد فيه الدولة والمجتمع فى مفهوم الأمة التى تسكن قلوب الجميع ولا يقتصر وجودها على التعين المادى للجهاز الذى سرعان ما ينفرط عقده بموت الزعيم، ولعل ذلك يفهمنا دلالة الفتنة الكبرى، فرغم اغتيال ثلاثة خلفاء وحدوث خمسة حروب أهلية من قتل الخليفة عثمان إلى القضاء على فتنة ابن الزبير لم تنكسر الأمة بل حققت بعد ذلك ما نسميه اليوم دار الإسلام.

وتجلت المقاومة للأوضاع المهينة التى وجدت الأمة نفسها فيها فى ظهور الجماعات الإسلامية الجهادية.

وليس غريبًا أن ظهر تنظيم القاعدة بقيادة بن لادن وتبدأ المعركة مع أمريكا والصهاينة، وتظل انتفاضة الفلسطينيين البواسل، والمقاومة العراقية لتعبر عن بداية حرب طويلة حتى تنهى الأسطورة الأمريكية التى تتحدث عن انتصارات فى حروب سابقة وتبشر بالنصر فى الحرب العالمية الحالية.

الاستشراق وإعلان الحرب ضد المسلمين

وقد بدأ الاستشراق الأمريكى عمليًا بعد الحرب العالمية الثانية عندما وجدت أمريكا نفسها مضطرة لتحل محل بريطانيا فى المشرق العربى، ويشير مايكلز كوبلاند ضابط المخابرات الأمريكى إلى أن بريطانيا حينما قررت التخلى عن مركزها فى الشرق الأوسط طلبت من أمريكا أن تحل محلها، وقد وجدت أمريكا رصيدها من معرفة الشرق الإسلامى ضئيلاً جدًا، فحاولت الحكومة الفيدرالية استدراك هذا العجز، حيث أصدر مجلس الشيوخ مرسومًا عام ١٩٥٨م تحت مسمى «مرسوم مجلس الدفاع المدنى القومى للتعليم» كان له أثر كبير فى تشجيع الاهتمام بالدراسات العربية والإسلامية، وفى عام ١٩٦٥م، أصبحت اللغة العربية تدرس فى خمسة عشر مركزًا، وتأسست عام ١٩٥٩ الرابطة الأمريكية لدراسة الشرق الأوسط.

وفى عام ١٩٦٤ - ١٩٦٥ بلغ عدد الجامعات الأمريكية التى تقدم برامج دراسات عليا حول الشرق الأوسط أكثر من ثمانى وعشرين جامعة، تحتوى برامجها على ٨٥٠ مادة، ويصل عدد الأساتذة العاملين بها إلى أكثر من ٣٠٠ أستاذ.

لقد خططت الولايات المتحدة لدورها الاستعمارى الجديد بعناية، ووظفت الاستشراق ورسمت لذلك ما أسمته «سياسة العلاقات الثقافية»، وقد أفصح «مرتيمر جراف» عن جانب هذه السياسة الثقافية قائلاً: «إن العملية الهائلة لجمع المطبوعات المتميزة فى لغات الشرق الأدنى الصادرة منذ ١٩٠٠ وحتى اليوم، والنظر فيها وفحصها إجراء يتعلق بالأمن القومى الأمريكى، وهو من أجل فهم أمريكى أفضل للقوى

التى تتأذى أو تنافس الفكرة الأمريكية وأهم هذه القوى الإسلام».

ومنذ ذلك الحين تمحور النشاط الاستشراقى الأمريكى حول السبل التى تتيح للولايات المتحدة بسط هيمنتها على المنطقة العربية والعالم الإسلامى فأصبح كل ما يطلب من الاستشراق أن يؤديه هو مساعدة المؤسسة الأمريكية على إنجاز تطلعاتها فى الهيمنة على مقدرات الشرق وضمان الحماية الكاملة لإسرائيل.

وأولى المستشرقون المعاصرون فى الولايات المتحدة رعاية فائقة لدراسة الأوضاع القائمة فى الدول العربية منذ قيام إسرائيل حتى الآن وذلك لتلبية احتياجات وتطلعات السياسة الأمريكية فى هذه المنطقة، كما احتل الاهتمام بإسرائيل مكانة خاصة فى الاستشراق الأمريكى المعاصر انطلاقًا من أهمية الدور الوظيفى الذى تؤديه إسرائيل فى تنفيذ الاستراتيجية الأمريكية حيث انصبت غالبية نشاطات المستشرقين الأمريكيين على مجالات الأبحاث الصراعية باتجاه تعزيز مواقع إسرائيل على جبهة المواجهة مع العرب.

وأصبح هؤلاء المستشرقون ممن يطلق عليهم عادة «خبراء شئون الشرق الأوسط» يلجئون إلى تقديم الخدمات المباشرة إلى صانعى القرار فى التحالف الإسرائيلى الأمريكى وتزويدهم بالمادة البحثية المناسبة.

ونجح اليهود فى تهويد المسيحية الغربية بإقناع المسيحيين أنهم أقرب الناس إليهم، لذلك تم الاتفاق بينهم على ضم التوراة إلى الإنجيل باعتبار أن التوراة هى كتاب العهد القديم، والإنجيل هو كتاب العهد الجديد، وسمى الاثنان بالكتاب المقدس، وبذلك أفلح اليهود فى جعل المسيحيين تبعًا لهم يأتمرون بأمرهم فى أمور الدين، فسهل التسلط عليهم فى أمور الدنيا.

وعلى المستوى العام ترجم الأصوليون المسيحيون الأوربيون والأمريكيون عقديتهم إلى عمل، فشعروا أن من واجبهم لعب دور عملى

نشيط فى تحقيق النبوءات وتسريع المجىء الثانى للمسيح، سعيًا وراء إنشاء المملكة الألفية السعيدة التى تنبأ بها يوحنا العراف فى رؤياه.

ولم يكن هذا الحماس المتجدد منحصرًا فقط على المستوى الشعبى، ولا على مستوى الكهنوت والدعاة، ولكن تجاوزه إلى الزعماء السياسيين وكبار القادة والمستعمرين والأكاديميين.

فقد كان الأمريكيون الأوائل فى هجرتهم من أوربا إلى أمريكا يشبهون أنفسهم بقبائل بنى إسرائيل التائهة، ومن قبيل المجاز أو الاستعارة، قارنوا المحيط الأطلسى بصحراء سيناء، والأرض الجديدة بأرض كنعان الموعودة.

ولما كلف كل من الرئيسين الأمريكيين السابقين جون آدمز وتوماس جفرسون - ضمن لجنة لانتقاء شعار للأمة الأمريكية الجديدة، أوصى كلاهما أن يكون الشعار: صورة النبى موسى وهو يقود اليهود الهاربين من فرعون مصر، ورأى الدبلوماسى الأمريكى بنيامين فرانكلين أن يكون الشعار: صورة موسى وهو يشق البحر الأحمر بعصاه.

ولما كانت الخطة الإلهية عند الغرب تقتضى المجىء الثانى للمسيح، فيلزم بالضرورة أن يسبقه «الشعب المختار» إلى فلسطين تمهيدًا لعودته... فالمسيح لن يعود إلى فلسطين إلا إذا عاد اليهود إليها حسب اعتقاد الأصوليين المسيحيين، وذلك لأن نهاية التاريخ التى تنبأ بها بولس منذ ألفى عام ترتكز أولاً وآخرًا على إنشاء وطن يهودى فى فلسطين يستطيع المسيح أن يعود إليه.

والأكثر عجبًا أن المسيحية الغربية - موجهة من قبل الاستشراق العنصرى - لم تيأس حتى يومنا هذا من تحقق المجىء الثانى، وحتى فى أمريكا القرن العشرين نجد ما لا يقل عن ٣٥٪ من سكان الولايات المتحدة الأمريكية، بمن فيهم الرئيس الأسبق ريجان، يؤمنون بأن المجىء الثانى للمسيح، ونهاية التاريخ على وشك الحدوث، فلا غرابة والحالة

هذه أن يتمكن «هال ليندسى» من كتابة (كوكب الأرض العظيم الفائت)، والذى حدد فيه النبوءة بنهاية التاريخ، وجزم أن العالم حاليًا يعيش فى مناخ مهيأ لظهور عدو المسيح الأكبر الذى رمزت إليه الرؤيا برقم ٦٦٦ (رؤيا ١٣/١٨).

كما أن الكثير من الأمريكيين الذين كانوا فى السابق معادين لليهودية بحجة أن اليهود رفضوا المسيح وقتلوه - بزعمهم - تحولوا إلى أنصار متحمسين لليهود ولإسرائيل، نظرًا للدور الذى يفترض أن يقوم به اليهود فى خطة المجىء الثانى وتحقق النبوءات.

وأصبح من يعتبرون أنفسهم حجاجًا إلى فلسطين من المسيحيين الأمريكيين، يضعون على صدورهم لوحة صغيرة كتب عليها «نحن نحبك يا إسرائيل لأن الله يحبك».

والواضح أن الوعاظ الأصوليين من أمثال «جيرى فالويل» نجحوا فى أن يجعلوا من رؤيا يوحنا نوعًا من التقديس لإسرائيل.... فكان أن تكيفت السياسة الأمريكية نحو الشرق الأوسط عمومًا ونحو فلسطين خاصة إلى درجة أن جعلت مصير أمريكا مرتبطًا بمصير إسرائيل، وقد قال «فالويل» «ما يشبه ذلك: لو أهملنا إسرائيل فلن يكترث بنا الله»، وباختصار فقد أصبحت إسرائيل هى العمود الفقرى للعقيدة المسيحية الأصولية فى الغرب.

والمخيف أن زعماء الأصولية يتغلغلون فى السياسة الأمريكية لدرجة أن الواعظ الأصولى المشهور «بات روبرتسون» رشح نفسه للرئاسة الأمريكية عام ١٩٨٨م، والمشهور عن هؤلاء اعتقادهم بضرورة نشوب حرب نووية، أو حرب عالمية ثالثة، مادامت تعجل بمجىء المسيح، وقد صرح وزير الداخلية الأمريكى جيمس واط أمام مجلس النواب قائلا: «إنه باعتبار العودة الوشيكة للمسيح ونهاية العالم، فليس من مبرر للقلق على البيئة، ولا التذمر من تخريب الموارد الطبيعية والبيئية».

وكذلك كان تصور كل من الرؤساء الأمريكيين (وودرو ولسون، وهاى ترومان، وجيمى كارتر، ورونالد ريجان).

وقد كانت وماتزال تصريحات الإدارة الأمريكية تعبر عن انحياز غريب لإسرائيل لا يمكن فهمه إلا فى إطار الخلفية الصهيونية التى استطاع الاستشراق الأمريكو-صهيونى أن يرسخها فى الذهنية المسيحية، وفى عام ١٩٩٨م، صرح مارتن إنديك مساعد وزير الخارجية الأمريكية قائلاً: «إن تعبير الوسيط المتوازن بين إسرائيل والعرب لا وجود له فى القاموس السياسى الأمريكى، لأن العلاقة بين الولايات المتحدة وإسرائيل خاصة جدًا».

ونتيجة لهذه العلاقة الخاصة جدًا، الدينية جدًا، تضع أمريكا تحت تصرف إسرائيل مواردها الاقتصادية الهائلة، وآلتها الحربية الضخمة، وتستعمل حقها فى نقض ما أجمع المجتمع الدولى على صوابه، باستخدامها للفيتو، ضد شعب أعزل أكثر من نصفه مهجَّر..

الاستشراق الأمريكو-صهيونى والعراق

وصف العراق فى الكتب اليهودية القديمة بأقبح الصفات، ونعت يوحنا العراف بابل فى رؤياه، بأنها «أم العاهرات ونجاسات الأرض» ومنذ ذلك، أصبحت بابل (العراق) رمزًا لكل رذيلة، ولكل شىء بغيض عند اليهود وعند الأصوليين المسيحيين، وما من شك فى أن يوحنا العراف كان متشربًا روح العهد القديم، فى النص الحاقد الذى يتحرق فيه شوقًا لسحق رءوس الأطفال البابليين بالحجارة، فقد جاء فى المزامير ١٣٧/٨-٩ «طوبى لمن يجازيك يا بابل كما جازيتنا، طوبى لمن يمسك أطفالك ويسحقهم على الصخور».

ومنذ قام يوحنا بوصم بابل فى رؤياه بـ «أم العاهرات ونجاسات الأرض» أصبح العراق مرتبطًا فى أذهان اليهود والمسيحيين الأصوليين

فى الغرب بكل أوصاف الرذائل والفساد..

واليوم نجد فى الغرب وفرة فى الكتب التى تصرح بالعلاقة بين عراق اليوم وبين بابل أم العاهرات ونجاسات الأرض، ومن أشهرها:

كتاب شارل تايلور «صدَّام بابل العظيمة».

- وكتاب شارل داير «صعود بابل»، الصادر عن ندوة دالاس اللاهوتية، وعلى غلافه صورة صدَّام حسين.

وحتى بعد هزيمة العراق، وقتل الملايين من أطفاله وسحقهم وتدمير بنيانه، مازال شارل تايلر يعتقد «أن العراق قد يبرز من جديد بدور بابل أم العاهرات، وأن صدام نفسه قد يعود إلى الظهور بصورة وحش الرؤيا عدو المسيح».

فلا يستغرب أن تستمر العقوبات الصارمة على العراق، لأنها قربة دينية يتقرب بها المسيحيون الأصوليون لليهود وللرب، آملين أن تتحقق رؤيا يوحنا! راكبين ظهر الولايات المتحدة المقنعة برؤيا يوحنا والمترسخة فى أذهان وأرواح المستشرقين الأمريكيين على مدى القرون.

وهكذا يقدم الاستشراق الأمريكى المعاصر وجهًا جديدًا ودليلاً آخر على التدنى الذى وصل إليه الاستشراق عبر العجرفة والاستخفاف بالقوانين الدولية والأعراف، ونهج سياسة الاستعلاء والفوقية، وتنميط البشرية باتجاه معالم الرجل الأبيض. ومن أقرب الأمثلة وأبسطها، تمكين الصهيونية وكيانها العنصرى فى فلسطين لمواصلة المسلسل الاستعمارى الذى سنه الغرب فى ديار الإسلام.

«الحرب تدور حول الأفكار والألفاظ.. من الصعب على الأمريكيين، بوجه خاص، أخذ تلك الرابطة فى الاعتبار، لأنه يبدو أن البلد ككل لا يعتقد فى أهمية الألفاظ والأفكار. لكن كيفية قراءة الأصوليين لكتبهم المقدسة خلال المائة عام القادمة ستصبح مسألة حياة أو موت للملايين».

بن لادن الأسطورة(*)

كنت جرام ١٩٩٩:

«صورة بن لادن التى تتضح، هى صورة أكثر ثراء وتعقيدًا وتحديدًا من الكاريكاتير المبسط له كشخص متعصب تملؤه الكراهية، لا عقل له، يقول تى. إى. لورنس «هؤلاء الذين يحلمون بالليل يستيقظون بالنهار ليجدوا أحلامهم تافهة! لكن من يحلمون بالنهار أناس خطرون، لأنهم قد ينفذون أحلامهم بأعين مفتوحة.. يجعلونها ممكنة». وبن لادن حقًا، أحد الخطرين الذين وصفهم لورانس».

بروس هوفمان ٢٠٠١

كلما انتشرت الشائعات عن شريط جديد لبن لادن سُرِّب إلى «الجزيرة» أو «العربية» تسرى ارتعادة إثارة وقلق فى الجهات الرسمية الأمريكية. يبدو الأمر وأن مجرد كلمات الرجل قد أصبحت تهديدًا للوطن.. على أية حال، سرعان ما يُبث الشريط، وقبيل انتهاء جملته الأخيرة تنطلق انفجارات غضب واستهجان من المسئولين الأمريكيين، وتنقض جملة مكثفة من الخبراء الطبيين والقانونيين الشرعيين على آخر إنتاج للقاعدة. تتهم وزارة الخارجية الأمريكية القناة الفضائية العربية بعدم المسئولية لبثها رسالة من إرهابى، ويتبعها المسئولون الأمريكيون. وفيما يستمر هذا الغضب العلنى يفحص الخبراء الحكوميون والإعلاميون الشريط ويُطلب منهم الإجابة عن أسئلة يقصد بها أن تبدو الولايات المتحدة أكثر أمنًا. مثلاً: هل لحيته أكثر طولاً؟ انتشر بها المشيب؟ انظر، إنه لا يحرك كتفه الأيسر، هل هو مصاب؟ أم فى

(*) نشر هذا المقال فى مجلة سطور.. العدد (٩٦)، نوفمبر ٢٠٠٤
عن كاتب أمريكى مجهول (لم يذكر اسمه)

سبيله إلى الموت؟ هل هذا صوته؟ وهل يشرب ماء أكثر من المرة السابقة؟ هل يعنى هذا أن كليتيه فى طريقهما إلى الفشل؟ أها! إنه يستعين بعصا فى السير! أأصيب ظهره؟ وماذا عن نوع الأحجار فى الصورة؟ استدع الخبراء الچيولوچيين! أتوجد تلك الصخور فى أفغانستان؟ وماذا عن نوع أزهار الربيع تلك؟ انظر، ماذا عن شجرة التوت إلى اليسار؟

أيمكن تحديد مكانها؟ أهو أكثر شحوبًا؟ هل يرتدى الملابس الأفغانية أم العربية؟ ماذا عن الطيور التى تغرد فى الخلفية؟ استدع خبيرًا فى الطيور! هل هذا الذى يتدلى من حزامه رمح؟ لماذا لا يحمل رمحًا؟ لماذا يرمش بعينيه؟ أمن الممكن أن يكون ذلك أمرًا بالهجوم؟ استدع أحدًا ما لفك شفرة رمش العينين! ماذا عن...؟

ووسط تلك الصاعقة فإن كلمات بن لادن هى التى يتم تجاهلها فى الشريط تحت الفحص.

وحقًا، لم يبذل الإعلام الأمريكى أو الغربى أى جهد متسق لنشر كلمات بن لادن، ومن ثم فشلوا فى أن يعطوا جمهورهم الكلمات التى تضع أفكاره وأفعاله فى سياق ثقافى وتاريخى، والتى لابد أن تزيد من وعى الغرب بالتهديد القاتل الذى يمثله الرجل. جُمَل بن لادن، التى يتحدث بها بهدوء وبتحديد تترتب ببطء على بعضها، تكرر وتشذب تيمات راسخة منذ وقت طويل، وتأخذ فى الاعتبار الأحداث العالمية والأفعال الأمريكية الحديثة. تحدث بن لادن على مدى أكثر من عامين منذ ١١ سبتمبر على فترات متباعدة نظرًا لظروف الحرب من ناحية، ومن ناحية أخرى لأنه يعلم أهمية الصمت، وهى معرفة فُقدت منذ زمن بعيد فى الغرب، خاصة فى واشنطن، حينما يتحدث، يستخدم تيمات قديمة وحديثة. الاستمرارية واضحة جدًا فى أوصافه للهجمات على الإسلام التى تتطلب الوحدة الإسلامية، والجهاد الدفاعى، والدور الأكبر

له وللقاعدة فى الحث على الجهاد، ودعوة إلى كل مسلم أن يساعد فى الجهاد بقدر استطاعته، ودعائه لله أن يهدى الشباب إلى الطريق القويم، يركز على الأهمية الحيوية للإبقاء على الولايات المتحدة هدفًا رئيسيًا للجهاد المسلح، وعلى واجب العالم الإسلامى المُلا عمر وطالبان فى استعادة أفغانستان. تحوى تيمات بن لادن الخطابية الجديدة تحذيرات لحلفاء أمريكا بالتوقف عن دعمهم الولايات المتحدة فى إجراءاتها فى العالم الإسلامى، واستحسانًا للهجمات المحدودة الإسلامية على الأنظمة الإسلامية «المرتدة»، وإدانات لرجال الدين المسلمين لدعم النظم التى تساعد أمريكا، وخطابات مباشرة لمواطنى الولايات المتحدة. أخيرًا، يوضح خطاب بن لادن بعد ١١ سبتمبر أنه يعرفنا، ويعرف ردود أفعالنا بدرجة تفوق كثيرًا معرفتنا به.

الإبقاء على التيمات الرئيسية

بالنسبة لبن لادن، فإن هجمات الصليبيين العدوانية على الإسلام هى الأمر الرئيسى. تعتمد مصداقيته الدينية فى دعوته إلى جهاد دفاعى على إقناع المسلمين أن الإسلام يتعرض لهجمة من قبل قوى لا إسلامية يميزها بن لادن على أنهم الصليبيون المسيحيون واليهود بقيادة الولايات المتحدة، ولسوء الحظ، فإن سياسات الولايات المتحدة وأفعالها تقدم للمسلمين برهانًا لا يقبل الشك على ما يصفه بن لادن بأنه محيط من القمع، والظلم، والمذابح، والنهب التى تنفذ ضد الأمة الإسلامية، لذا يقول للمسلمين: إن الدين يأمرنا بالدفاع عن أنفسنا ضد الولايات المتحدة. فهذا جهاد دفاعى لحماية الأرض والشعوب. ماذا يشكل، فى نظر بن لادن، هذا الطوفان من الكوارث التى ينزلها الصليبيون بقيادة الولايات المتحدة بالمسلمين؟ أخشى أنه مُحق على الأقل فى الأسلوب الذى يرى به إخوانه فى العالم الإسلامى يهاجمون من قبل الولايات المتحدة، يقول بن لادن: إن العدو المتوحش لا يحتاج إلى وثائق أو ذرائع

لمواصلة الحرب التى بدأها منذ عقود، كان هذا رده على ناقديه الذين قالوا: إن الوصايا الأخيرة لمن قاموا بهجمات ١١ سبتمبر كانت وثائق سمحت للولايات المتحدة بتبرير حربها على الإرهاب، تساءل أيضًا، ما هى، بحق الله، الوثائق التى تُدين الشعب الفلسطينى وتبرر المجازر ضده التى استمرت لأكثر من عقود خمسة على أيدى الصليبيين واليهود؟ وما الدلائل ضد الشعب العراقى التى تبرر حصاره وقتله بأسلوب غير مسبوق؟ وما الوثائق التى جرمت المسلمين فى البوسنة والهرسك وبررت للصليبيين الغربيين وعلى رأسهم الولايات المتحدة إطلاق حلفائهم الصربيين لإبادة الشعب المسلم فى المنطقة واقتلاعه تحت غطاء من الأمم المتحدة؟.. ماذا فعل المسلمون فى الشيشان، أفغانستان، وجمهوريات وسط آسيا الإسلامية ليبرر غزوهم بواسطة النظام العسكرى السوفييتى الوحشى وقتلهم وإبادتهم واقتلاعهم؟ ماذا كان لدى الولايات المتحدة من أدلة يوم غزوها أفغانستان وقتلها واقتلاعها المسلمين هناك؟ لقد فرضت، حتى قبل هذا حصارًا ظالمًا على الأفغان تحت غطاء الأمم المتحدة..... يقول: إن كل المسلمين الذين تبيدهم الآلة الدولية الصليبية اليهودية لم يرتكبوا جُرمًا سوى قولهم الله ربنا.

إدانة بن لادن واقعية، رغم ما يشوبها من اعتقاد بضغينة الغرب على المسلمين. كل ما ذكره من صراعات قد حدثت أو أنها مازالت مستمرة - والأهم أن تصويره إياها على أنها هجمات على الإسلام والمسلمين، تلقى قبولاً تامًا فى أنحاء العالم الإسلامى. وحينما يواجه بن لادن بما يصفه على أنه الهجمة الصليبية فهو مصيب عقائديًا فى ادعائه أن الاستجابة القائمة على تعاليم القرآن هى الجهاد الدفاعى. يذكرنا برنارد لويس أن المسلمين لا يؤمرون بإدارة الخد الأيسر، أيضًا كتب جيمس تيرنر جونسون الباحث الأمريكى فى شئون الحرب الإسلامية أنه رغم وجود أساليب عديدة للجهاد «.. فقد اعتبر المُشرعون الإسلاميون الجهاد

بالسيف ضروريًا لأن «دار الحرب» (الولايات المتحدة فى هذه الحالة) تفرض نفسها على دار الإسلام..». صاغ بن لادن هذا الرأى فى خطابه عام ٢٠٠٢ إلى الشعب الأمريكى. تساءل «لماذا نشن الجهاد ضدكم؟ الإجابة هى أنكم قد هاجمتمونا وأنكم مستمرون فى الهجوم علينا».

حفز المؤمنين بعد أن عرَّف بن لادن الخطر على الإسلام بأنه هجمات الصليبيين بقيادة الولايات المتحدة ووصف الجهاد الدفاعى كاستجابة صحيحة وحيدة، ينظر بن لادن إلى القاعدة على أن لها دورًا مهمًا تقوم به - أو وفقًا لوصف الظواهرى فهى «خط الدفاع الأول عن الأمة الإسلامية التى قررت أن تحارب حتى النفس الأخير وألا تستسلم لجرائمكم وشروركم». بالنسبة لبن لادن، لا ترجع أهمية القاعدة إلى إسهامه أو إسهام مجموعته فى قدراتها العسكرية، فهو يؤكد دائمًا أن القاعدة وحدها لا تستطيع تحقيق انتصار للمسلمين. لكن بن لادن يرى أن مسئوليته الأولى هى حفز المسلمين على المشاركة فى الجهاد الدفاعى، ومساعدة هؤلاء الذين يتطوعون وتدريبهم. يقول بن لادن: إن القاعدة أخذت على عاتقها مهمة الحفز على أساس النموذج الذى أرساه القادة المسلمون الأوائل ويُبين أن الله أمر به الرسول، خير الأنام، من ثم يؤكد بن لادن على أهمية تعريف الأمة بما هو مطلوب وإيقاظ المسلمين. وكما قال فى رسالته بُعيد ١١ سبتمبر فإن واجبه هو إخبارهم بما هو خير لهم. فالقاعدة قد أُنشئت لشن الجهاد ضد الكفرة، وخاصة لمجابهة هجمة الدول الكافرة ضد الدول الإسلامية. قال أيضًا: إن الجهاد هو الفريضة السادسة الغائبة (غير المعلنة)... وتريد القاعدة أن تبقى على عنصر إرعاب الآخرين هذا حيًا، وتجعله جزءًا من الحياة اليومية وتضفى عليه مكانة العبادة.

يُصرُّ بن لادن على أن على كل مسلم أن يلعب دورًا فى الجهاد لأنه فرض عين لا فرض كفاية. يتحاج بن لادن، بمنطقية، أنه اتخذ دور قيادة

الحرب ضد الولايات المتحدة لأن أكثر رجال الدين أهمية قد اعتقلوا فى دول الشرق الأوسط والولايات المتحدة. فإن العلماء المسلمين والمشرعيين ورجال الدين، فى الأحوال العادية،هم من يقودون صفوف المعركة. وبما أنه عاجز عن فك أسرهم، ويغضبه ما يقوله رجال الدين الذين يعملون فى خدمة الأنظمة السياسية الإسلامية وأمثالهم، فهو يذكر الآخرين بواجبهم. وكتب قائلا: إن الجهاد فريضة على الأمة جميعًا. وإن الأمة ستظل مذنبة إلى أن تقوم بتكريس أبنائها، ثرواتها، قوتها حتى تستطيع شن الجهاد والدفاع ضد شرور الكفار فى فلسطين والأماكن الأخرى. أيضًا، يرى أن الواجب الأول هو قول الحق للأمة وأن أهمية ذلك الواجب تتأتى من أفعال الخداع والتضليل الخطيرة التى يمارسها علماء السلطة ورجال الدين ممن هم فى خدمة الحكام.

يُذكِّر بن لادن عامة المسلمين أن لكل دوره الذى حدده الله له. وهذا يعنى وفقًا لما ذكره أبو أيمن الهلالى فى «الأنصار» فى مارس ٢٠٠٢ أن يوسع كل فرد من الأمة المشاركة وفقًا لموقعه وقدراته مستغلاً لكل السبل المتاحة من التفجيرات والمقاطعة والحفز والأسر والتمويل والتنوير والدعاء والاغتيال. مثلاً، وفيما يستشهد بن لادن بحملة الإعلام الغربى الشريرة ضد الإسلام، يدعو الناشرين والمذيعين المسلمين للقيام بدورهم فى مواجهة الرسائل الغربية المسموعة والمرئية والمكتوبة. كما يدعو أثرياء المسلمين إلى المشاركة بأموالهم للدفع بعجلة المعركة باتجاه هدفها المُبتغى.

يستحث بن لادن النساء المسلمات أيضًا للانضمام إلى المعركة غير المقصورة على الرجال ويذكرهن بما فعلته البطلات المسلمات الأُولَيَات، وأيضًا تلك اللاتى دفعن بأبنائهن للجهاد فى فلسطين ولبنان وأفغانستان والشيشان، وأيضًا بما فعلته وتفعله البطلات المقاومات فى فلسطين اللاتى لم يقتصرن على الدفع بذويهم بل قمن أيضًا بالتضحية بأنفسهن.

يُبقى بن لادن أيضًا على حواره الذى استمر طوال عقد من الزمان مع شباب المسلمين، ذلك الحوار الذى اتخذ منحى جديدًا بعد ١١ سبتمبر، حيث توقف عن توجيه اللوم لهم وأخذ يشيد ببطولاتهم ويتسارعهم للالتحاق بصفوف المجاهدين. وحقًا، فإن حفاظ واشنطن على سياسة الأمر الواقع حيال العالم الإسلامى ومنحها الضوء الأخضر دائمًا لإسرائيل فى هجماتها ضد الفلسطينيين كان لابد وأن يدفع بالشباب إلى التطوع للجهاد حتى ولو لم يجد بن لادن ولو لم يتم غزو العراق. بالنسبة لبن لادن، فإن أكثر آليات التطوع فاعلية هى أن تظل الولايات المتحدة تفعل ما ظلت تفعله فى العالم الإسلامى طوال السنوات الثلاثين الماضية. إن غزو العراق وما تبعه من تمرد ومقاومة هو كسب عظيم للقاعدة.

قرار بن لادن بتغيير لهجة خطابه للشباب تبدو محاولة مقصودة لجعل عادة التحاق الشباب بصفوف المجاهدين أمرًا مؤسساتيًا. فرسالته هو أنه يمكن الآن الاعتماد على الشباب المسلم كمدافعين عن الأمة وأن الأجيال القادمة سيحذون حذوهم.

لا يلجأ بن لادن فقط إلى استخدام فكرة كونهم جزءًا من التاريخ الإسلامى لحفز الشباب على الانضمام لصفوف المجاهدين، بل أيضًا يُعوِّل كثيرًا على النموذج الذى أرساه المهاجمون فى ١١ سبتمبر. أعتقد أن الغرب يسىء تمامًا تقدير مدى الإعجاب والاحترام وحتى الحب الذى حظى به هؤلاء خاصة بين شباب المسلمين، لقد ظللنا لسنوات عديدة فى الغرب نشهد أفعال «الانتحاريين» الفلسطينيين وننتهى إلى أن هؤلاء الشباب والشابات شخوص مأساوية، ضحايا للفقر، والتعليم السيئ، والبطالة واليأس وغسيل المخ من قبل القادة السياسيين والدينيين، الوصفة بسيطة: فى الغرب، يعتقد أن اليأس وفقدان الأمل والخوف والأمراض العقلية هى مسببات الانتحار ونفترض أن هذا ينطبق أيضًا على المسلمين.

نحكم على «الانتحاريين» وعملهم كظاهرة سلبية قياسًا على خبرتنا ومن خلال أعيننا الغربية فقط، من ثَمَّ فشلنا أن نعرف أن أعدادًا كبيرة من المسلمين ينظرون إلى هؤلاء الفلسطينيين على أنهم شهداء أبطال يضحون بأنفسهم فى سبيل قضية أعظم كثيرًا من أنفسهم، تضحية بالنفس، وطنية واستشهادًا، تستحق الاحترام بل والتصميم على محاكاتهم. بالإضافة، يعتبر المسلمون هذا استجابة عسكرية عادلة للاحتلال الإسرائيلى الذى دام أكثر من خمسين عامًا، ونفى ثلاثة أجيال من الفلسطينيين إلى مخيمات اللاجئين.

صعَّدت هجمات ١١ سبتمبر العمليات «الانتحارية» إلى مستوى أرفع، بحيث ركز بها اهتمام العالم الإسلامى على المعركة المستعرة بين الصليبيين وحلفائهم الصهاينة والمدافعين المجاهدين. فيما نظر الغرب إلى الذين قاموا بالهجمة على أنهم أشرار، قتلة متوحشون أرادوا فقط قتل الأبرياء، وحُكم على الهجمة مرة أخرى على أنها نتيجة لليأس وغسيل المخ. لكن إذا حُللت الأحداث من أعين وأذان المسلمين الذين يؤمنون أن الدفاع عن العالم الإسلامى والعقيدة يتطلب من المرء التضحية بالذات فى سبيل الله وسبيل إخوانه المسلمين لتم النظر إلى شريط بن لادن الذى أعلن فيه أن أولئك الفتية، دُرِّبوا وجُهِّزوا لكنهم لم يعلموا بتفاصيل العملية حتى قبيل صعودهم على الطائرات من منظور مختلف. فيما اعتبر الغرب ما قاله بن لادن استغلالا شديد القسوة لهؤلاء، رأى المسلمون فى كلمات الرجل رثاء شخص غمره الإعجاب والرهبة تجاه أولئك الذين لم يوجهوا أية أسئلة، بل دافعوا، بإرادتهم عن الإسلام بحياتهم، هذه النظرة تدعمها ردود أفعال مشاهدى قناة الجزيرة وتعليقاتهم حينما عرضت الوصايا الأخيرة المصورة تليفزيونيًا لهؤلاء «الانتحاريين». يستبعد الغرب بسرعة مبالغ فيها أن أولئك الشباب قد أصبحوا نماذج تُحتذى لكثير من شباب المسلمين، فى حين

أن معظم الهجمات الانتحارية منذ ١١ سبتمبر تنفذ فى قلب البلاد العربية، ويعتبر المسلمون منفذيها أبطالا سواء كان موقع الأحداث جروزنى، تونس، جاكرتا، موسكو، كشمير أو بالى. خاطب بن لادن هؤلاء فى أكتوبر ٢٠٠٢ بقوله: إنهم يمثلون جسر التضحيات الذى ستعبره الأمة إلى مرحلة المجد والكرامة والقنطرة التى ستأتى بالسعادة والرحمة للبشرية.

الإحباط الوحيد الذى يُستشعر فى خطاب بن لادن يستشف فى جهده لحفز مساندة أكبر من المسلمين لأنواع الجهاد غير العسكرية مُذكِرًا إياهم أن القاعدة لن تستطيع هزيمة الكفار وحدها. وكما أوضحنا، فإن التطوع بين جميع طبقات المسلمين لأعمال التمرد لا يمثل مشكلة طالما استمرت سياسات الولايات المتحدة وما تقوم به إسرائيل تُرى على أنها الوجه المغاير لما يدعو إليه بن لادن. يوجه بن لادن سخطه إلى أفراد الطبقات الوسطى والطبقات الثرية الأكبر سنًا وعلماء المسلمين الذين يرى أن عليهم تقديم العون للمجاهدين، لكنهم بدلاً من ذلك يُمالقون الأنظمة المتواطئة مع الكفار، ومن ثم، فهو يرى أن هيمنة العدو هى تبعة لما يفعلونه.

تخاطب وحدة القاعدة الإعلامية المسلمين من خلال أشرطة الڤيديو ومقالات الإنترنت. ليس المقصود بذلك الإمداد بالمعلومات لكن إثارة الحماس بين عامة المسلمين، وإلحاق الخزى بالأثرياء لعدم مساندتهم المجاهدين. ويعتبر ذلك تكتيكًا ممتازًا لأن قوة حافز إلحاق الخزى مازالت فاعلة فى البلاد الإسلامية. يلجأ بن لادن أيضًا إلى استخدام الشعر فى خطابه إلى الأمة، ووفقًا لما يقوله البروفيسور عيسى بولاطه أستاذ اللغة العربية فى جامعة ماكجيل بكندا، فإن وظيفة الشعر فى العالم العربى أكثر تأثيرًا وانتشارًا منها فى الثقافة الغربية، ومن ثَم يريد بن لادن أن يوضح أنه قائد مُلم بالثقافة العربية، ويستخدم إحدى

الوسائط التى يقبلها المجتمع التقليدى. فحتى الأميون من المستمعين يفهمون تلك اللغة لأنهم يتلون القرآن كل يوم.

استهدفوا أمريكا

يمثل مسعى توجيه غضب المسلمين إلى أمريكا أكثر مهمات بن لادن صعوبة، تلك التى لم يحقق فيها كسبًا حاسمًا بعد. أحد الآثار المرنة لكولنيالية القرن التاسع عشر الغربية فى العالم الإسلامى هى نزوع حركات المقاومة الإسلامية للتركيز على الأنظمة الحاكمة داخل دولها، وهذا توجه يدعمه الأثر الإسلامى الذى مفاده شن الجهاد على العدو القريب أولاً قبل التحول إلى العدو البعيد، ومن ثَم يقاوم كل شعب عربى (مصر، الجزائر، اليمن.... إلخ) أنظمتهم الحاكمة، استمر هذا الوضع حتى ظهور بن لادن على المسرح الدولى. عمل بن لادن جاهدًا على تحويل بؤرة الهجمة من الدول القومية إلى الولايات المتحدة وقال: إن تلك الأنظمة باقية فقط بسبب دعم الولايات المتحدة لها.

وفى المجال العسكرى، تظل هذه المهمة مشروع بن لادن الرئيسى الذى لم يكتمل، كما أن التيار فى حركة القاعدة الذى يُحتمل له أن يتراجع إذا هو قُتل أو أُسِر، يعتبر تنظيم القاعدة متعدد الجنسيات والأثنيات إنجازًا هائلاً، ويعزى هذا، إلى حد بعيد، إلى قيادة بن لادن وقدرته على إبقاء كراهية أعضاء القاعدة مركزة على أمريكا. يقول الدكتور عبدالله النفيسى، مدير مركز ابن رشد للدراسات فى لندن: إن تركيز بن لادن على أمريكا ظل مفتاح وحدة القاعدة. قال النفيسى فى مقابلة له مع الجزيرة فى فبراير ٢٠٠٢: إن بساطة هذا الافتراض ومباشرته ربما كان مصدر قوة. ليس ثمة قضايا خلافية داخل القاعدة، فى حين أن ثمة قضايا خلافية كثيرة داخل أى تنظيم إسلامى آخر.

فى الوقت الحاضر، على الأقل يبدو أن بن لادن يواصل نجاحه فى تركيز غضب العالم الإسلامى على الولايات المتحدة. آخر نجاحات بن

لادن فى هذا الصدد هو قرار أكثر جماعات التمرد فعالية فى الجزائر إعلان الولاء لبن لادن وإعلانها فى بيان لها أنها ستركز هجماتها على مصالح الولايات المتحدة. أمدتنا استطلاعات الرأى لمؤسسة Gallup والبى بى سى ببصيرة نادرة فى كيفية امتزاج كلمات وأفعال الولايات المتحدة، وكلمات وأفعال بن لادن لتأتى بنتيجة فى صالح هدف القاعدة بدرجة كبيرة، أى تركيز غضب المسلمين على أمريكا.

وطبقًا لتقرير جالوب فإن الألفاظ التى استخدمت بكثرة لوصف الأمريكيين كانت «القساة، المغرورين، الصلفيين، المتحيزين والذين من السهل استفزازهم». بينت تلك الاستطلاعات أيضًا فى مارس ٢٠٠٢ أن ٨٠٪ من الباكستانيين يعتقدون أن الهجمة العسكرية على القاعدة وطالبان ظالمة. وأن ٨٦٪ من المغاربة و٨٩٪ من الأندونيسيين، ٦٠٪ من الكويتيين لهم نفس الآراء. وفى النهاية فى يونيو ٢٠٠٣ وجد Pew Elopal Httiucer Project أن غالبية سبع من بين ثمانى دول إسلامية يخشون الغزو الأمريكى، وأن الشعور المعادى لأمريكا يتعمق بعنف فى نيجيريا وإندونيسيا، وأنه ليس ثمة حد لعدم مؤازرة الولايات المتحدة فى العالم الإسلامى. لا يسعنا إزاء هذه الصورة إلا أن ننتهى إلى أن تعليمات بن لادن كانت تُتَّبع. لقد قال فى خريف ٢٠٠٢: إن أولوية الحرب فى تلك المرحلة لابد أن تكون ضد قادة الكفار أى الأمريكيين واليهود الذين لن يوقف عدوانهم وهيمنتهم على المسلمين سوى بالجهاد وأنه لا يجوز تضييع الجهد فى معارك جانبية بل يجب التركيز على الضربات ضد هؤلاء حتى ينهاروا وتنهار معهم كل الأجزاء الأخرى.

أهمية أفغانستان

تظل أفغانستان، التى سقطت من قائمة المسئولين الأمريكيين، مركز اهتمامات وأولويات بن لادن. يُغفل الغرب، إلى حد بعيد، عن الود الذى يحمله بن لادن لأفغانستان ودين الشرف الشخصى والواجب الدينى

الذى يشعر بن تجاه المُلا عمر وطالبان لاستضافته ورفضهم المطالب الأمريكية بتسليمه، أيوجد من الرجال والمنظمات من هم على استعداد للتخلى عن مقاليد السلطة فى بلد ما من أجل رجل واحد ومبدأ دينى؟ ورغم ظنون الغرب، فلا يوجد، على أرض الواقع أية أدلة على أن بن لادن لا ينظر إلى المُلا عمر على أنه القائد المسلم العالمى الأول.

خارج نطاق العرفان بالجميل، فإن بن لادن وقادة إسلاميين آخرين يعتبرون أفغانستان «الدولة الإسلامية الوحيدة فى العالم» وأن المعركة القائمة هناك الآن ضد الولايات المتحدة ستقرر مصير العالم الإسلامى ومن ثَم فهى إحدى معارك الإسلام الخالدة إحدى العقائد الرئيسية فى استراتيجية القاعدة هى أن على الإسلام الراديكالى أن يمسك بالسلطة فى إحدى البلدان كتمهيد لإسقاط النظم العلمانية فى العالم الإسلامى. ومن ثَم يعتبر هذا أحد الأسباب لتنفيذ القاعدة هجماتها الإرهابية ودعمها لكثير من حركات التمرد القومية، النقطة الأخرى هى أن حركات التمرد التى تساندها القاعدة تقاتل - دون استثناء - من أجل استعادة أراض كان يحكمها المسلمون ومن ثم تتفق مع تعريف الجهاد الدفاعى. لم أجد حتى الآن أن القاعدة تدعم أى تمرد إسلامى يسعى إلى غزو أراض جديدة هذا رغم مزاعم الإعلام الغربى وآخرين كثيرين فى الغرب أن بن لادن يقول بوضوح إن هدفه النهائى هو تقويض الحضارة الغربية برمتها..

وللأسف، فإننا نجد أنه حتى القادة السياسيون فى الغرب ليسوا محصنين ضد هذا الزعم. يصف چاك سترو وزير خارجية بريطانيا هجمة القاعدة فى نوفمبر ٢٠٠٢ ضد منشأتين بريطانيتين فى إسطنبول على أنها «هجمة على حضارتنا برمتها».

لكن، قد يسأل سائل، عن السبب فى أن إحدى أفقر دول العالم على الأرض ومعها أحد الملالى الذى على درجة متواضعة من التعليم. فَقَد

إحدى عينيه وشوّهت وجهه المعارك، يمثلان محورًا مهمًا فى نظر الإسلاميين؟ والجواب موجود فى حوليات التاريخ الإسلامى. منذ أن أكمل البريطانيون تدمير الخلافة الإسلامية عام ١٩٢٤، لم تحل أية دولة محل تركيا كمركز للعالم الإسلامى. بتعبير آخر، يحتاج الإسلام إلى موقع تنطلق منه خلافة جديدة، دولة تحكمها الشريعة. كتب سيد قطب قائلاً: إن جمال النظام الإسلامى الجديد لا يمكن تقديره إلا إذا اتخذ شكلاً ملموسًا. ومن أجل تحقيقه لابد أن يحدث إحياء فى إحدى البلاد الإسلامية تمكنه فيما بعد من الوصول إلى قيادة العالم. وفى عام ١٩٩٧ بيّن صامويل پ. هنتنجتون أن الإسلام يفتقد ما أسماه «دولة مركزية» منذ سقوط العثمانيين ويتجادل هنتنجتون قائلاً إن تلك الدولة يمكنها تأدية وظيفتها التنظيرية لأن الدول الأعضاء ستنظر إليها على ذات رباط قربى ثقافى، وأن الحضارة هى أسرة ممتدة، ومثل الأعضاء الكبار فى العائلة، فإن الدول المركزية تمد أقرباءها بالدعم والتنظيم. وفيما حاولت دول عديدة القيام بهذا الدور - السعودية، إيران، باكستان، تركيا - لم تصبح أى منها المركز المهيمن مما يعنى أنه لا يوجد بينها من هو فى مركز قوى كى يتوسط فى الصراعات داخل الإسلام، ولا تستطيع أى منها، وفقًا لهنتنجتون، أن تعمل، من منطلق السلطة، نيابة عن الإسلام فى معالجة الصراعات بين المجموعات الإسلامية وغير الإسلامية. وفجأة سقطت كابول فى يد طالبان عام ١٩٩٦ وأصبحت أفغانستان الدولة الإسلامية أو الإمارة الرسمية تُحكم وفقًا لمبادئ الشريعة. ومن ثَم وجد الإسلاميون أنفسهم وقد امتلكوا الأساسيات التى سعوا إليها منذ وقت طويل. دولة يحكمها عالِمٌ إسلامى يمكن من خلالها إحياء الخلافة الإسلامية، وقد كتب الكثير عن عدم جدارة الملا عمر بتلك المكانة علميًا. فمن الواضح أنه أقل علمًا بكثير من علماء كثيرين فى باكستان والسعودية ومصر وأماكن أخرى، لكن الواقع كان هو أن أفغانستان دولة

إسلامية تحكمها الشريعة وقائدها رجل دين خاض حربًا جهادية. ومن ثم، فرغم أن الملا عمر قد لا يكون أفضل رجال الدين علمًا، لكنه مؤهل لملء الفراغ، بما أن الكمال لله وحده. تأكدت هذه الحقيقة بالبيان الذى أرسله عدد من كبار علماء الدين السعوديين عبر الإنترنت إلى «أمير المؤمنين... محمد عمر ومن معه من مجاهدين». هنئوه على انتصار طالبان الذى قسم العالم إلى معسكرين وعبروا عن فخرهم به لانتسابه إلى الأمة لأنه حقق سيادة المؤمنين وشرفهم على أرض الواقع. وقالوا إنهم يشهدون على أنه ومن معه هم وحدهم الذين رفعوا رءوسهم أمام أمريكا.

وأخيرًا، تعود أهمية أفغانستان بالنسبة لبن لادن والإسلاميين فى جميع أنحاء العالم إلى أنها كانت موقع النصر الوحيد للمسلمين على الغرب على مدى أكثر من ثمانية قرون. كان لهزيمة الجيش الأحمر، ومازال، قوة عاطفية ورمزية هائلة فى العالم الإسلامى، كما أنها تظل حافزًا فاعلاً لتجنيد مقاتلين للقاعدة ولقوات متميزين إسلاميين آخرين. ما فشل الغرب فى استيعابه هو أن صدمة الجهاد المنتصر الأفغانى أحيت عقيدة المسلمين السنة، بأن الله إذا أراد شيئًا فلابد أن يحدث.

لم يغفل بن لادن عن هذه الحقيقة، فقد رحب بغزو الأمريكيين لأفغانستان ليس فقط لأنه جعل الجنود الأمريكيين هدفًا سهلاً، لكنه أيضًا لأنه وضع الكفار على تربة البلد الوحيد الذى نجح المسلمون فى الدفاع عنه طوال الأزمنة الحديثة، واستدعى بذلك ذكريات انتصارات الرسول ضد الكفار فى غزوتى بدر والخندق. هنا أيضًا يلعب التاريخ دورًا فاعلاً لأن انتصارات الرسول منذ أكثر من أربعة عشر قرنًا مازالت مواضيع للإحالة المنتظمة والتعليق فى الخطاب المعاصر العام فى العالم الإسلامى. يشعر المسلمون أنهم يشاركون بأسلوب جمعى وفردى فى

تبعات الأحداث الماضية، بشكل غير موجود فى المسيحية (لكنه حاضر فى اليهودية).

بيَّن بن لادن بهدوء، وهو يرحب بالقوات الأمريكية، ثقته أن التاريخ يعيد نفسه بإذن الله، أكد بن لادن وهو يصور الحرب على أنها مثال جديد لحرب ريتشارد قلب الأسد الصليبية - ترتدى هذه المرة الألوان الحمراء والبيضاء والزرقاء وتحاول سحق جند صلاح الدين الجدد، أكد أن أفغانستان وشعبها يقفون وحدهم وأن الغرب بأكمله، باستثناء بلاد قليلة، يدعمون تلك الحرب البربرية الظالمة، حفز بن لادن فى خطابه للأفغان مشاعرهم الدينية وكبريائهم القبلية وكراهيتهم للأجانب، وحاول فى آن واحد أن يلحق الخزى بالمسلمين الذين لم يساعدوا الأفغان، ثم عرَّف الأفغان بأنهم طلائع جيوش الإسلام ودرعه ضد الولايات المتحدة مثلما كانوا فى حالة جهادهم ضد السوفييت.

المكان الهام الذى تحتله الأفغان فى مشاعر بن لادن، وأيضًا فى خطط القاعدة والإسلاميين الآخرين الإستراتيجية، يؤكد أن المعركة مع الولايات المتحدة للتحكم فى البلد، مازالت لم تبدأ بعد بجدية.

توسيع التيمات وتشذيبها

ظل بن لادن طوال قرابة عقد من الزمان بالغ الدقة فى تركيز خطابه على تيمات قليلة واضحة وتحاشى الإضافات الهامة التى قد تجعل رسالته ملتبسة أو تضيف الشرعية على أفعال تشتت قواته العسكرية، تمسك بن لادن بهذه الممارسة منذ هجمات سبتمبر، لكنه تحت ضغط الظروف، أُجبر على تشذيب كثير من تيماته وتوسيعها، تمت تلك التغييرات بأسلوب يحافظ على جوهر رسالته ووضوحها، فيما يتسع أيضًا لمتطلبات الحرب، أخبرت القاعدة المسلمين أيضًا أنهم ربما يرون قريبًا بعض العمليات العسكرية التى لا تقع فى نطاق أولويات الجماعة المعلنة، الأمر الذى قد يعنى هجمات ليست مركزة مباشرة على الولايات

المتحدة أو تعديًا عليها. كتب أبو أيمن الهلالى فى «الأنصار» أن الضرورات الأمنية والسياسية تتطلب الاضطلاع ببعض العمليات التى ربما بدت سلبية كى يستوعبوا قوة العدو وينهكوها، ويدفعوا به إلى حرب استنزاف، تحمى مواقع المجاهدين وتبقى على القضية حية، واعتبر أن هذا السلوك جزء من المهمات المؤقتة التى تهدف إلى إعاقة العدوان وتحافظ على التوازن الاستراتيجى.

إرخاء اللجام العسكرى قليلا

منذ العامين اللذين أعقبا ١١ سبتمبر وبن لادن يرخى قاعدة الهجوم القصرى على الولايات المتحدة، أتاح ذلك الإبقاء على مقاتلى القاعدة فى حالة نشاط عسكرى فيما يعدُّ بن لادن ومساعدوه للضربة الكبرى الثانية داخل الولايات المتحدة وأيضًا قصد بن لادن من تلك الضربات تحذير حلفاء الولايات المتحدة، خاصة فى أوربا من أنه لا يوافق على اشتراكهم فى الحرب ضد أفغانستان والعراق وأن للقاعدة القدرة على إلحاق الضرر بهم، لكن مع هذا، فآخر ما يريده بن لادن فى المجال العسكرى هو إيجاد موقف تلحق فيه قوى أوربية عديدة بالكامل فى حرب الولايات المتحدة ضد القاعدة، وهذا هو السبب الرئيسى فى حدوث هجمة واحدة واسعة المدى فى أوربا الغربية، أى الهجمة على محطة القطارات فى مدريد فى مارس ٢٠٠٤، قُصد بالهجمة، بالطبع، الإضرار بأسبانيا لاشتراكها فى الحرب على العراق، وأيضًا كانت تحذيرًا للحكومات الأوربية أن باستطاعة القاعدة التدخل فى السياسات الانتخابية، يجب النظر إلى هجمة مدريد، بأساليب عديدة، على أنها محاولة بن لادن لإعاقة الأوربيين الغربيين من دعم الولايات المتحدة، وبشكل كلى، فإن أحد الاختبارات الحقيقية لألمعية بن لادن ستكون قدرته على إبقاء أوربا على الخطوط الجانبية قدر الإمكان. فبعد الحماس البدئى لأوربا لدعم غزو الولايات المتحدة لأفغانستان لتدمير طالبان

والقاعدة أبقى بن لادن على نيرانه العسكرية بعيدًا عن الآخرين إلى أن تجمدت الأوضاع فى أفغانستان، أى فى أواخر مارس ٢٠٠٢، ثم أصدر أوامره بسلسلة من الهجمات التحذيرية لحلفاء أمريكا لا تكفى لجرهم إلى الحرب، وكان بن لادن قد حذر حلفاء الولايات المتحدة فى أواخر سبتمبر ٢٠٠١ أن البلاد التى تساعد أمريكا والصهاينة لن تلومن سوى نفسها وأشار إلى اليابان وفرنسا وألمانيا قائلاً: إنها قد تبعت الصفوف خلف الصليب الذى رفعه بوش.

لم يُلق أحد بالا إلى تحذيرات بن لادن وربما أنه كان قد توقع ذلك، آخر العمليات حتى استقرت الأوضاع لطالبان والقاعدة فى أفغانستان، لكنه بعد ذلك وجه ضرباته إلى بلاد تدعم الولايات المتحدة فى أفغانستان، ضرب المصالح الفرنسية فى كراتشى (مايو ٢٠٠٢)، وعلى شواطئ عدن (أكتوبر ٢٠٠٢) والمصالح الألمانية فى تونس (أبريل ٢٠٠٢) وتعد تلك هجمة ضد إسرائيل أيضًا لأن من قتل من السياح كانوا يهودًا ألمانًا، وباكستان (يوليو ٢٠٠٢) وكابول (يونية ٢٠٠٢)، وإسطنبول (نوفمبر ٢٠٠٣)، ثم قتل حوالى مائتى مواطنا استرالى وبعض البريطانيين فى بالى (أكتوبر ٢٠٠٣) وكما أوضحت القاعدة فى أكتوبر ٢٠٠٢ فإن تلك الهجمات تحمل رسالة سياسية إلى حلفاء واشنطن فى حربها على الأمة الإسلامية، واختتم البيان بمخاطبة الحلفاء كى يراعوا مصالحهم قائلا: إن الفرصة مازالت متاحة ليعيدوا التفكير فى مواقفهم قبل فوات الأوان، تكرر التحذير فى فبراير ٢٠٠٣، وأصدرت القاعدة قائمة محددة بعد الحرب على العراق.

من غير المحتمل الآن أن يشن بن لادن هجمات تتعدى الضربات التحذيرية، أى من النوع الذى شُن فى ١١ سبتمبر لأن الأحداث التالية أوقعت شقاقًا بين الولايات المتحدة وأوربا، الجدل فى الأمم المتحدة حول الحرب على العراق، وغضب أوربا من المعاملة التى يلقاها سجناء

جوانتانامو، والنقاش الساخن بين واشنطن وأوربا بعد الحرب على العراق، كل هذا جعل بن لادن يفصل بين أوربا وأمريكا، بالإضافة، فقد لاحظ الأوربيون بالتأكيد أن الهدف الأساسى للقاعدة هو الولايات المتحدة لا أوربا - وهى رسالة ستعيد التأكيد عليها هجمة مدريد فى مارس ٢٠٠٤، وما تلاها من عرض بن لادن الهدنة مع الأوربيين، وكما كتب «مايكل اجناتيف» فقد وسع هذا الهوة بين أوربا والولايات المتحدة وقال: إنه بعد التعاطف الشديد مع الولايات المتحدة فى أعقاب ١١ سبتمبر، استنتج الأوربيون أن الولايات المتحدة فقط هى المستهدفة وأن فكرة أن الحضارة الغربية هى الهدف غير مقنعة، لذا، فقد أدركوا أنهم بمساندتهم أمريكا سيصبحون هدفًا ثانيًا.

من ثَمَّ، لن يشن بن لادن هجمات كبيرة فى أوربا فى المستقبل القريب كى لا يحفز صلحًا عبر/ أطلسى.. وقد شنت القاعدة بالفعل هجمات على بريطانيا وإيطاليا وأسبانيا فى تركيا والناصرية ومدريد، من المحتمل أنها ستستمر فى شن الهجمات ضد البلدان التى ساعدت الولايات المتحدة فى العراق والتحديد أستراليا، اليابان وبولندا، وربما وجهت تلك الهجمات لمصالحها فى الشرق الأوسط والمحيط الهادى، لا أوربا، وفى حين أنها لن تشن هجمات فى عشوائية ضد المسلمين فى دول الخليج حيث توجد قواعد للولايات المتحدة فمن غير المستبعد أن تلجأ إلى عمليات الاغتيال.

الهجوم على الأنظمة المرتدة بأسلوب أكثر مباشرة

كما بينّا سابقًا حاول بن لادن تحويل توجهات مجموعات المقاومة الإسلامية من الدول الإسلامية إلى الولايات المتحدة، لكنه لم يحقق نجاحًا كليًا فى هذا، لكن، منذ ١١ سبتمبر أصبح ثمة زيادة فى التركيز على الدول الشرق الأوسطية «المرتدة» ويدل هذا على مرونته فى استغلال الفرص التى أوجدتها الأحداث الدولية مثل الاستجابات

المنبطحة للحكومات على هجمات إسرائيل العسكرية والاغتيالات المستهدفة فى فلسطين، ومساندتها غزو العراق، لكنه فى نفس الوقت لم يُرخ تركيز القاعدة العسكرى على الولايات المتحدة.

الجائزة التى يطمح إليها بن لادن هى قيادته للعالم الإسلامى، يصر بن لادن، فى معركته مع الأنظمة على جعل كلمة الله ورسوله، لا كلمة حكام المسلمين، هى المصدر الحق للقيادة فى العالم الإسلامى، ورغم ادعاء حكومات كثيرة أن الشريعة الإسلامية هى مصدر تشريعاتها، لكن منذ ١١ سبتمبر، ظل بن لادن يكتسب شعبية متزايدة بين المسلمين لأنه برهن عمليًا على أنه يطيع فريضة الجهاد فى مجابهته الشر، وحماية المسلمين ويتحدث ويفعل بما يخدم الإسلام، يمكن القول إنه فى العالم الإسلامى اليوم أصبح بن لادن وحده فى صفوف الملائكة، وكثيرًا ما كرر بن لادن أن القيادة هى حق هؤلاء الذين يتحدثون بكلام الله ويجسدونه فى أفعال.

فى نظر المسلمين، شهد العامان التاليان لأحداث ١١ سبتمبر عرضًا لا ينافس للعجز الكامل لقادة المسلمين وأنظمتهم، فعل الإسرائيليون ما حلا لهم فى جنين وبيت لحم ورفح، أقاموا مستوطنات أكثر، وبدءوا فى إنشاء جدار العزل الذى يضم أراضى فلسطينية أكثر، مازالت الولايات المتحدة فى أفغانستان كقوة احتلال وغزت العراق واحتلته وقال بوش عن شارون إنه «رجل سلام» وأعلنت أمريكا تكرارًا تفهمها لحق إسرائيل فى الدفاع عن نفسها ودعمته، اجتمعت القمم العربية وأعلنت استنكارها لهذا أو ذاك من أفعال إسرائيل وأمريكا وفى النهاية أمدت الأنظمة العربية الولايات المتحدة بالقواعد والمطارات والموانئ، مما جعل غزو أفغانستان والعراق واحتلالهما ممكنًا، من ثَمَّ يمكن فهم وقع كلمات بن لادن على المسلمين حينما يُعدد المهانات ويذكر العار الذى لحق بأمة الإسلام منذ أن توقفت الناس عن اتباع أوامر الله وسنة رسوله ﷺ.

أتاح هذا العجز لبن لادن أن يوسع من هجماته على علماء المسلمين ويكشفها، هؤلاء الذين يعملون فى خدمة الأنظمة بدلا من أن يقودوا الإصلاح ويقودوا حركة الجهاد ويخبروا أمتهم بالحقائق.

ومع غياب العلماء الحقيقيين يقول بن لادن: إن على الأفراد من أمثاله تولى القيادة كما فعل علماء المسلمين الأوائل، منذ البداية وقد منحت أحداث الحرب الصليبية ضد الإسلام منذ ١١ سبتمبر بن لادن مجالا أوسع كثيرًا للهجوم على علماء الدين هؤلاء المتواطئين مع الحكام.

استهداف أمريكا: تبرير الإصابات الجماعية

فيما أبقى بن لادن الولايات المتحدة فى قمة خطابه منذ ١١ سبتمبر، فقد ركز أيضًا على إعداد العالم الإسلامى لقبول هجمة تتسبب فى إصابة أعداد كبيرة من الأمريكيين وقد يُعزى إلى هذا الجهد حقيقة أنه لم تحدث هجمة كبيرة فى أمريكا مذاك، وباتجاه تحقيق هدف إعداد المسلمين كرر بن لادن تحذيره للأمريكيين أن ثمة هجمة على أمريكا أكبر من تلك التى شُنت فى ١١ سبتمبر فى سبيلها للإعداد، أيضًا تحدث بن لادن مباشرة إلى الشعب الأمريكى وطلب منهم استخدام نظامهم الديمقراطى للضغط على حكومتهم للتخلى عن سياساتها التى تضر بالعالم الإسلامى، أى أنه يقول لهم: إن مواطنى الولايات المتحدة يملكون السلطة لإنهاء الحرب بين أمريكا والإسلام وإنهم لم يستخدموها، وبذا، فهم يستحقون أية كارثة تحيق بهم.

فى نوفمبر ٢٠٠١ قال بن لادن: إن القاعدة تدافع عن نفسها ضد الولايات المتحدة وإذا لم يتمتع المسلمون بالأمن فلن يتمتع به الأمريكيون، وبعد عام، ذكر الأمريكيين أن الطريق إلى الأمان يبدأ برفع الظلم وأن على حكومتهم وحلفائها فهم ذلك.

رافقت تحذيرات بن لادن، دعوة محددة منه إلى رئيس الولايات المتحدة وشعبها لاعتناق الإسلام وإنه مستعد لأن يكون مرشدهم ومعلمهم، وهو

يظن بهذا أنه يطيع الحكم القرآني: ﴿ وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا ﴾ وبهذا يبرر هجماتهم «المحتملة» ضد الأمريكيين أمام علماء المسلمين.

باستطاعة بن لادن أن يضطلع وحده بتحذير الأمريكيين من هجمات أكبر ودعوتهم إلى اعتناق الإسلام، لكن الخطوة الأخرى للتمهيد للعالم الإسلامي بشن هجمة على الولايات بأسلحة الدمار الشامل تتطلب مساعدة علماء دين راسخين محترمين. وحتى مايو عام ٢٠٠٣ لم يكن للقاعدة أساس مقنع لتبرير استخدام أسلحة الدمار الشامل إلى أن نشر عالم شاب اسمه الشيخ ناصر بن حميد الفهد، في ذلك التاريخ مقالا يبرر فيه استخدام تلك الأسلحة ضد الكفار، وكان هذا ما يحتاجه بن لادن ولعل أعظم خدمة قدمها هذا المقال لبن لادن هو نقل مناقشة موضوع أسلحة الدمار الشامل من مجال السياسيين والمُعلقين والأكاديميين والجنرالات والمثقفين المسلمين ووضعها في مجالها الصحيح أي الاحتكام إلى (ما يزعم أنه) كلمة الله.

يبدأ الشيخ فهد بأن يصف تعبير «أسلحة الدمار الشامل» بأنه غير دقيق ويدعي أن الأسلحة الكيميائية والبيولوجية والنووية التي قد تقتل ألف شخص يسميها الغرب «أسلحة محظورة دوليًا» في حين أن استخدام القنابل شديدة الانفجار التي تزن أكثر من سبعة أطنان وتقتل ما يفوق الثلاثة آلاف فرد تسمى «أسلحة مسموح بها دوليًا» من ثَمَّ يقول إن معاهدات منع انتشار أسلحة الدمار الشامل من قبل الغرب الذي يملك تلك الأسلحة هي مجرد محاولات لإرعاب الآخرين وحماية أنفسهم باحتكارهم لها، ثم ينهي الفهد بحثه بأن الله يأمر المسلمين، وفقًا للقرآن بالرد بالمثل على العدوان الموجه ضدهم ومن ثَمَّ فعلى المسلمين الرد على ما تقترفه أمريكا بهجمات مماثلة، ويذكر أن بعض الإخوة يقدّرون عدد من قتل من المسلمين بشكل مباشر أو غير مباشر بأسلحة الغرب بعشرة ملايين، ثم يبرر وقوع الضحايا المدنيين في تلك

الهجمات التى يدعو لها إذا كان المقصود بها هزيمة العدو، كما أنه يبرر سقوط ضحايا من المسلمين، الذين حرم الله قتلهم، لأنهم موجودون فى كل مكان داخل بلدان الكفار!!

هكذا اكتملت متطلبات بن لادن لإعداد المسلمين لاستخدام أسلحة الدمار الشامل ضد أمريكا، بل تقدمت ميلا إضافيًا، وذلك بأن حول ديمقراطية أمريكا إلى مواطنيها أنفسهم. قال: إن الكثيرين فى الغرب طيبون ومعتدلون وإنه وإخوانه ليسوا معادين للولايات المتحدة وبهذا قلب المقولة الثانية العبثية المشخصنة التى يعشقها الغرب: «نحن نحارب بن لادن لا المسلمين» أو «نحن نحارب صدام لا العراقيين» قلبها ضد الولايات المتحدة بأن أكد للأمريكيين أن الإسلام يخوض حربًا ضد حكومتهم لا ضدهم، ويوضح أنه يعى أن أمريكا ديمقراطية ومن ثَمَّ فللناخبين الأمريكيين سلطة تغيير قادتهم الذين ينفذون سياسة خارجية معادية للإسلام ومن ثَم بمقدورهم أن يبطلوا سبب الحرب بين الولايات المتحدة والإسلام، وينهوا خطر هجوم بأسلحة الدمار الشامل التى تتسبب فى سقوط ضحايا أمريكيين كثيرين ولأن الأمريكيين لديهم مثل تلك السلطة فليس باستطاعتهم القول: إن القاعدة تهاجم المدنيين وتقتلهم، ويبرر ذلك بأن أفراد الشعب الأمريكى مشاركون فى كل جرائم أمريكا، وهكذا يتوسل إليهم أن يستخدموا نظامهم الديمقراطى لإنهاء السياسات التى استوجبت كراهية المسلمين للولايات المتحدة وجهادهم ضدها وأن يلعبوا نفس الدور الذى قاموا به لإنهاء حرب فيتنام.

وعلى حين أن بن لادن سيرحب بانتهاء تلك السياسات وحدوث معارضة للحكومة فهو لا يتوقع هذا أن يحدث، الأحرى أنه يستخدم هذا الخطاب لإقناع المسلمين أنه قد استنفد كل الوسائل لمنع ضرورة استخدام أسلحة الدمار الشامل ضد الأمريكيين.

نقلة جديدة: بن لادن يستبق استجابة أمريكا

النقطة الأخيرة التى يجب التأكيد عليها هى أن خطاب بن لادن بعد ١١ سبتمبر هو توقع منه لحالة القلق والخوف واسعة الانتشار التى سادت بين الأمريكيين بعد تلك الأحداث، لا يعنى ذلك القول إن بن لادن نبوئى، لكن يعتبر نقطة تؤخذ فى الاعتبار مضادة لتقييم المسئولين والمحللين الغربيين له بقولهم إن ما يحفزه هو فقط الجهل والكراهية وعدم معرفته بكيفية سير الأمور فى المجتمعات الحديثة فى الغرب والولايات المتحدة ، كتب بول بريمر «لا يوجد ثمة أهمية لمعالجة ما يسمى بجذور أسباب إرهاب بن لادن، إننا نحن تلك الجذور، فهو يكره أمريكا، ولا يحب مجتمعنا يكره ما نمثله ولا يحب قيمنا» قد يكون هذا صحيحًا، لكن كراهيته وشنه الحرب لا علاقة لهما بمجتمعنا، قيمنا أو أفكارنا، فهو يكره سياساتنا وأفعالنا فى العالم الإسلامى وليست كراهيته عمياء أو جاهلة فقد استوعب أساليب أمريكا استيعابًا دقيقًا كاملا بدرجة أنه يستطيع إصدار البيانات التى تهدئ مخاوف المسلمين وتدعيم عقائدهم فيما ينشر القلق والخوف بين الأمريكيين حول ما يستنهى به الأمر بأمريكا فى حربها على القاعدة.

فى تلك الخطابات يُطمئن بن لادن المسلمين أنه فيما ستجعل تلك الحرب ظهوره العلنى أقل، لكنه سيكون آمنًا، وفى نفس الوقت يوحى للأمريكيين أنه فى تلك الأثناء سيخطط لنهايتهم حتى ولو لم يسمعوا منه بانتظام، وأنه سيتلقى العون من إعلامهم، وأيضًا، يذكر المسلمين بنفاق الولايات المتحدة ويغدر الصهاينة ويغذى مخاوف الأمريكيين من تنامى سلطة الحكومة الفيدرالية البوليسية ويؤكد على عدم قدرة أمريكا على تحمل ألم الحرب ضد الإسلام.

رغم ذلك لا يُستمع إلى كلماته!

أكد بن لادن فى خطابه بعد ١١ سبتمبر أنه لن يتحدث كثيرًا أو

يظهر فى غالبية الأوقات، وأنه سيهاجم من يعاونون أمريكا وسيشن الحرب ضدهم فى العراق وأفغانستان وأماكن أخرى، وسيحفز المسلمين ضدهم وسيهاجم الولايات المتحدة مرة أخرى، وإذا أمكن بأسلحة الدمار الشامل، وسيحاول تدمير اقتصادها، ورغم كونهم أشرارًا فأمرهم لا يعنيه، وكذلك أمر معتقداتهم أو أساليبهم، لكنه سيجبرهم على إنهاء سياساتهم تجاه المسلمين، ويؤكد أنه لن يكل أو يضعف أو تهن عزيمته ولن يتنازل وأنه سيهزمهم بمشيئة الله.

ردد بن لادن مثل تلك الكلمات الخطيرة قبل ١١ سبتمبر لكن أحدًا لم يأبه، يرفض الأمريكيون، وخاصة النخب، استيعاب معانيها التى هى ببساطة أن بلدهم فى حرب مع عدو قد حذرهم من كل تحرك أو نية له، تتركنا كلمات بن لادن دون أية ذرائع، أيا كان ما سيحدث، أو ما سيصيبنا، وأطفالنا، وبلدنا من كوارث، فقد تم تحذيرنا منها واخترنا ألا نبذل جهدًا لمحاربتها، لقد تجاهلنا لعامين بل لما يقرب من عشرة أعوام، تحذير ميكافيللى، «لا يجوز أبدًا أن تسمح بمقاطعة (تأجيل) مخططاتك حتى تتلافى الحرب، لأن الحرب لا يمكن تلافيها هكذا، لكنها تؤجل فقط وفى غير صالحك» لقد انبطحنا وسمحنا، «أن تتقاطع مخططاتنا» سواء كان ذلك فى مجالات الدفاع، الإنفاق، السفر، السياسة الخارجية، المسئولية المالية، الأمن الداخلى أو أمن المواطن كى نتحاشى التضحيات المتطلبة للقتال ضد الحرب التى شنها بن لادن. سيهاجمنا مرة أخرى، بقوة أكبر كثيرًا، وآنذاك سنجبر على خوض الحرب التى قد أجلناها إلى الآن، وفيما ننهض من الأرض لنفعل هذا علينا أن ندعوا أن يكون مكيافيللى قد أخطأ فى أحد تحذيراته الأخرى «ومن ثَم يحدث أن جميع الأنبياء المسلحين كانوا منتصرين على حين دُمر الأنبياء العزل».

التحذير الذى يقدمه الكاتب لأمريكا لاستنهاض همتها لتحمى نفسها ضد هجمات متوقعة من تنظيم بن لادن، هذا من شأنها، وما أشد

حاجاتنا لنفس التحذير نوجهه إلى جماهير أمتنا لتقف مستيقظة لتصد حرب أمريكا والصهيونية الصليبية - ولكن هناك بوش وشارون يدافعون بكل شراسة عما يعتقدونه حقًا لهم... ونحن نفرط بكل شراسة عما هو حق لنا، ولا فائدة من التحذير، فالقوم موتى، ورائحة الجثث تزكم النفوس، وبن لادن قد يقع أخيرًا ويصلب أو يحرق كما حرقت جان دارك، وفتها قد ترفع الجثث الهامدة، الرؤوس لتذرف الدموع.. ثم تعود مرة أخرى إلى رقادها الذى قد يطول إلى زمن من غير المتوقع حسابه.

obeikandl.com

الفهرس

مقدمة ٧

مواجهة العولمة ٢٣

فى مواجة البرجوازية العفنة ٤١

مقاومة الهيمنة الأمريكية ٤٧

التربية والمقاومة ٦١

المشروع القومى العربى ٦٩

مقاومة التخلف والجهل والجمود ٨٣

فلسفة الكلمات وفلسفة الأفعال ٩٩

فلاسفة المقاومة ١١٣

لنقف أمام التهديد الأمريكى ١٢٣

ثورة كوبا وظهور جيفارا ١٢٧

الصحوة الإسلامية ١٣٥

السلفية المنهجية ١٤٩

السلفية الجهادية فى مقابل النزعة الاستعمارية الغربية ١٥٣

الاستشراق وإعلان الحرب ضد المسلمين ١٥٩

بن لادن الأسطورة ١٦٥

obeikandl.com

المؤلف
د. عبدالحكيم بدران

- بكالوريوس علوم. قسم الكيمياء ١٩٥٧. جامعة القاهرة.
- حاصل على دكتوراة فى الكيمياء من جامعة ليون – فرنسا ١٩٦٨.
- منذ حصوله على الدكتوراة قام بالتدريس فى كلية العلوم جامعة القاهرة، وفى بعض الجامعات العربية والأجنبية مثل: جامعة الإمارات (الإمارات)، وجامعة مانشستر (إنجلترا).
- ساهم بجهد كبير فى تطوير المناهج التربوية ونشر الثقافة العلمية فى مصر وعلى مستوى الوطن العربى.
- يشارك فى العديد من الجمعيات الثقافية والعلمية مثل: نقابة المهن التعليمية، وجمعية التقدم التكنولوجى وله نشاطه الكبير فى المجال السياسى والتربوى.
- عمل خبيرا فى المنظمة العربية للثقافة والتربية والعلوم وفى مؤسسات تعليمية وعلمية أخرى في الوطن العربى.
- أسس عدة مجلات منها: العلم والتقنية، والتدخين والصحة.. وراجع العديد من الكتب والمقالات المنشورة فى الوطن العربى.
- له أكثر من عشرين كتابا منها: تشجيع البحث العلمى، الاعلام والتوعية العلمية، أضواء على البيئة، والتنوع الاحيائى، خيانة المثقفين، رسالة إلى العقل العربى.
- نشر له أكثر من ١٥٠ مقالا فى الصحف والمجلات العربية منها: عالم الفكر، مجلة العلوم (منظمة التربية والثقافة والعلوم العربية «الكسوه)، مجلة العربى الكويتية،مجلة سطور.
- يناضل من أجل المشروع القومى، ولا ينتمى إلى أى اتجاه سياسى ويتقبل الرأى الآخر شريطة أن يكون صاحبه مخلصا منتميا لوطنه ولأمته.
- يؤمن بأن أزمة التخلف فى المجتمعات أزمة ثقافية فى الأسس، وأن النخبة أهم أسبابها؛ وعليه فهو يتوجه الآن بالكتابة إلى الجماهير.

من قائمة الإصدارات

موسوعة تاريخ حضارات العالم ترجمة: زينات الصباغ
تكنولوجيا الحضارات القديمة هشام كمال عبد الحميد
صورة العرب والمسلمين في العالم د. عزة علي عزت
خفايا المستقبل: إلى أين تمضي البشرية محمد الحديدي
العروبة المفترى عليها د محمد عبد الشفيع عيسى
مسارات للمستقبل العربي د محمد عبد الشفيع عيسى
المخططات اليهودية للسيطرة على العالم أحمد أنور
السوق الشرق أوسطية إكرام عبد الرحيم
عبادة الشيطان على ضفاف النيل حسين عبد الواحد
أسرار الجاسوسية وتعبئة المخابرات يوسف هلال
أسامة بن لادن (رجل ضد الغرب) شهاب نصار
الحرب العالمية الرابعة ياسر حسين
عصر المسيح الدجال هشام كمال عبد الحميد
عن المسيح الدجال بين الفوز والحقيقة أسامة خيري
أمريكا تضرب نفسها محمود قاسم
أمريكا تطلب العالم لبيت الطاعة د. محمد مورو
الشخصية المصرية في الأمثال الشعبية د. عزة عزت
الجريمة السياسية (دراسة مقارنة) د. أحمد عبد الوهاب
الصحافة المشبوهة سيد محمود
عمرو موسى (اللقاءات السرية) شهاب نصار
الوثيقة الفكرية الناصرية
الناصرية.. رؤية مستقبلية ندوة
الناصرية هل تجاوزها الزمن؟ محمد يوسف
جمال عبد الناصر مشوار زعيم ونضال أمة صبري غنيم
جمال عبد الناصر.. أسرار ومواقف صبري غنيم
الإنترنت عالم متغير م. أشرف صلاح الدين
التجارة الإلكترونية د. إيهاب أحمد عبد الرحمن
الاستنساخ والبحث عن الخلود د. أميمة خفاجي
التشريح الجمالي د. محمد محمد المفتي
الإبر الصينية في العلاج والتخدير د. لطفي سليمان
الأعشاب الطبية د. موسى الخطيب

عامك طريقك إلى صحتك د. نجدي إبراهيم
تعليم الموسيقى والعزف على آلة الأورج محمد كريم
كتاب الأسنة (التنزه في عقول الناس) ترجمة نبيصل الياسري
أنت وقواك الخفية د. محمد لطفي حسن
الجنس والشباب النكي كولن ولسون ترجمة أحمد عمر شاهين
تجارة الجنس جاري جورون ترجمة زينات الصباغ
صناعة النجوم سكوت أونيل ترجمة زينات الصباغ
أشهر فضائح القرن العشرين حسن صابر
أمريكا .. الانهيار السياسي والأخلاقي حسين عبد الواحد
بنات إبليس (نساء في مملكة الشر) حسين عبد الواحد
السحر والجن في عالم الفن أحمد الجندي
الناس والجن/السحر في القرآن/العلاج بالقرآن سمير فراج
الإنسان والمجهول (أسرار السحر والشعوذة) سمير فراج
العالم السري للمشاهير سمير فراج
الامبراطورة فوزية (أولى زوجات شاه إيران) سمير فراج
صورة الرئيس د. عزة عزت
المختطف رئيس سامية صادق
الصيد الرئيس ترجمة: ماهر البطوطي
هاجس الكتابة د. أحمد إبراهيم الفقيه
مستحيل الكتابة د. أحمد الدوسري
المسرح والأسطورة (دراسات في الظاهرة المسرحية) إدوار الخراط
في زمن آخر (دراسات في الفن التشكيلي) إدوار الخراط
المشهد القصصي إدوار الخراط
القصة والحداثة إدوار الخراط
متاهات (١) قوافل الحمير ثريا نافع
متاهات (٢) في الطريق ثريا نافع
آخر الإسلام في الأدب الإسباني ترجمة د. حامد أبو حمد و..
علامات العمل الدرامي ترجمة : د. خالد إبراهيم سالم
أنثى النص (مقاربات في الأدب النسوي) سعد الدين خضر
إشكالية المصطلح الغربي في ثقافتنا المعاصرة د. سمير حجازي
الجواهر والأحجار الكريمة د. عادل الأنوسي

بالإضافة إلى العديد من الكتب الأدبية ؛ رواية .. قصة .. شعر .. دراسات ونقد وكتب متنوعة : سياسية ، قومية ، دينية ، معارف عامة ، تراث ، وأطفال .
خدمات إعلامية وثقافية

الآراء الواردة في الإصدارات لا تعبر بالضرورة عن آراء يتبناها المركز

obeikandl.com